

أساطير شرقية

كرم البستاني

دار المحررين
للنشر والتوزيع

أساطير شرقية

تأليف
كرم البستاني

أساطير شرقية
كرم البستاني
2020
74
24×17
978-977-6675-70-4

عنوان الكتاب
اسم المؤلف
سنة النشر
عدد الصفحات
مقاس الكتاب
الترقيم الدولي

دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناشر دار المحرر الأدبي
للنشر والتوزيع والترجمة المشهرة برقم 24821 بتاريخ
1/10/2015 إن دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع
والترجمة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره ؛
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه وأفكاره

البريد الإلكتروني

tahreradbe@gmail.com

المحتويات

٧	الأسطورة في الحياة والتاريخ
١١	القسم الأول
٥٥	القسم الثاني
٧٣	المصادر

الأسطورة في الحياة والتاريخ

الأسطورة وما أدراك ما الأسطورة؟ إن هي إلا لهُوَ القلوب وَسَمَرُ الأرواح. وقد رافقت الأساطير الإنسان منذ نشأته، وما زالت ترافقه، ولن تنفك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والنفس البشرية تحتاج إليها احتياج الجسم إلى الغذاء؛ لأن حياة البشر مرتكزة عليها. والأساطير مهما كان شأنها قائمة — ولا شك — على أساس من الحقيقة إلهي أو بشري، غير أن الخيال الإنساني تلاعب في هذا الأساس فحوّله إلى ما تخيّل له من صور، وألبسه من الأوهام بروداً جعلته بعيداً عن المعقول، وإن يكن قريباً من النفوس محبباً إلى القلوب. وليست الأسطورة قديمها وحديثها بمختصة بشعب من الشعوب، وإنما هي مشاع لكل الأمم، على اختلاف ملهم ونحلهم، تنتقل بينهم حاملة على أجنحتها غبار القرون وتهاويل الأزمنة المتعاقبة.

وهي عند الباحثين نوعان: بشرية ومؤلهة. فالبشرية حكاية محدّد مكانها معيّنة أشخاصها، تشتمل على تقاليد الشعب الذي استنبطها وتداولها واعتقاداته، والمؤلهة ترتبط بما وراء الطبيعة ارتباطاً تفسّره العلاقات المتبادلة بين المؤلهين والبشر، ولكن الدور الأسمى لأولئك الآلهة؛ فإليهم مرجع كل شيء ويدهم مدار كل أمر.

وقد كان لزاماً على الإنسان القديم أن يخترع الأساطير؛ فإن ما حوله من مدهشات الكون وأعاجيبه التي لم يستطع إدراكها إدراكاً علمياً حمله على أن يتوهم له تفسيراً ويتخيّل أصولاً ووقائع يرتاح إليها، وتزيل حيرة نفسه.

وأقدم الأساطير التي وضعها الإنسان هي — ولا نكير — أساطير تكوين العالم والطوفان. شاهد الإنسان هذا الكون العظيم ووحده المتماسكة ونظامه البديع، فأدرك بفطرته أن لا بد لابتداع مثل هذه البدائع من علة أولى عاقلة ذات قوة أسمى من قوى

العناصر والكائنات، فعبد عن حقِّ هذه العلة، وسَمَّاهَا بأسماءٍ حسنى تدلُّ على أزليتها وأبديتها ووحدانيتها وعظمتها، ووضع أساطير تخيَّل فيها كيف برأت السماوات والأرضين، وما فيها من مخلوقات على اختلاف صورها وأشكالها وأحوالها، فأتت أساطيره متَّفقة في مبدئها وإن اختلفت في تفاصيلها وما فيها من أسماء وصفات، فإذا نظرنا إلى ما قاله بيروز الكلداني عن اعتقاد الآشوريين والبابليين في التكوين، وما قاله سنكنيتن المؤرخ الفينيقي عن اعتقاد الفينيقيين، وأوفيد الشاعر اللاتيني عن اعتقاد اليونان والرومان فيه، وما ورد في التواريخ عن معتقد الفرس والبراهمة وغيرهم من الشعوب القديمة، رأينا أن كل هذه المعتقدات، على مختلف تعابيرها، تتفق وما أورده موسى في التوراة عن صورة البدء: خلاء وخواء وظلام وروح أزلِي يُرْفُّ على وجه المياه.

وهكذا أساطير الطوفان عند الآشوريين واليونان والرومان، فهي تشابه، في تفاصيلها وتصويرها للسفينة وتفجُّر عيون الغمر العظيم وتفتُّح كوى السماء، ما ذكره موسى في التوراة، غير أن نوح التوراة يتحول عند الآشوريين إلى كزيزوتروس، وعند اليونان والرومان إلى دوкалиون، وتابوت نوح يرسو على جبال أراط في أرمينيا، وترسو فُلك كزيزوتروس من أرمينيا على جبال الغوردين، وتتعلق سفينة دوكالين بجبل البرناس في بلاد الإغريق. هذه هي أساطير الشعوب القديمة، وإن هي إلا رموز تنطق بمجد الله الخالق المبدع عز وجل وتخبر بأعمال يديه. وقد كان للأساطير احترام عظيم ومنزلة سُميا عند فلاسفة تلك الشعوب ومشاهير شعرائهم، يحدِّثون بها في نثرهم وشعرهم، ويتوسعون في إيراد تفاصيلها، ويتزيَّد كل منهم في تلوين صورها، وهي لا تزال اليوم متعة النفوس لما فيها من الغرائب وجمال الخيال. وليس أمتع للنفوس من الغرائب والتخيُّلات؛ لأن الحقيقة، على جمالها وعظمتها، جافَّة جامدة، ترضي العقول، ولكنها لا تلامس الأرواح كما تلامسها الخرافات بأجنحتها المخملية، ولا سيما أن عصرنا هذا عصر مادَّة تغذي الجيوب، ولكنها لا تُشبع الأرواح، تلك الأرواح التي يلذها، من حين إلى حين، أن تسيح في العوالم الخيالية لتُنزِّه عنها وتُفرِّج همومها. وهذا ما حدا بعض الأدباء الغربيين، قبل الحرب الأخيرة، أن يصرفوا همَّهم إلى تأليف روايات خرافية، ويعودوا إلى عالم الأوهام، فرأينا في الفرنسية غير واحدة من هذه الروايات كـ «خيط أريان» وسواها.

وكنت منذ أخذت أُنَى بالميثولوجية الفينيقية والعربية أتشَوِّف إلى جمع بعض أساطير في كتاب يجد فيه قارئه ملهاة له عن هموم الحياة، ومتعة يستمتع بها في ساعات وقوفه عن عمله، حتى قيضت لي مطالعة كتب بعض المؤرخين والشعراء، من يونان ورومان

الأسطورة في الحياة والتاريخ

وعرب وفرنسيين وإنكليز، أن أعثر على أساطير كثيرة، اخترت منها ما كان الشرق ملعبها، وكتبتها في شكل حكايات تسلي من يطالعها وتفيده في وقت معاً، وقد جعلتها في القسم الأول من الكتاب، أما القسم الثاني فقد ضمّنته شروحاً تبين صلة كل أسطورة بالتاريخ، ومعجماً يشرح أسماء الآلهة واختصاصهم، وأسماء الأبطال والأمكنة التي كانت ملاعب لهم، واعتمدت في أكثر الأحيان أسماء الآلهة الرومانية لخفة وقعها على الأذان.

ولا أكتف القارئ الكريم ما عانيت من جهد وما صرفت من وقت لجمع شتات هذه الأساطير من كتب عديدة، واختيار أروع صورة لها من شتى الصور المنثورة في تلك الكتب، حتى تمكّنت من نظم عقودها، متسلسلة، في حكايات متساوقة صورها، متلاحمة أجزاءها، وأمل أن أكون قد وفّقت إلى الغاية التي استهدفتها.

كرم البستاني

القسم الأول

(١) أدونيس وعشروت

كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان في جزيرة قبرس شاب يدعى بغماليون يعيش عزبًا لا يقرب النساء ولا يقربنه، وكان بارعًا في فن المثالة، فصنع ذات يوم، من العاج، تمثال فتاة في جمال لا تستطيع الطبيعة أن تمنح امرأة بشرية مثله. ولم يكد ينتهي من عمله وينظر إليه، حتى شعر بعشق شديد في قلبه لهذه الفتاة العاجية صنع يديه، وكأنه ذهل فطفق يتلمس مجاسها ليرى أليست بشرًا سويًا من لحم ودم؟ ويقبلها ويتخيلها ترجع إليه القبل، وكأنه يحس هسهسة رجح تلك القبل، ويكلّمها ويضمها إلى صدره، ويدغدغها حينًا ويحمل إليها الهدايا حينًا: من لُعبٍ وأزهار مختلفة الألوان، وزنابق عابقة الطيوب. ويلبسها ملابس فاخرة ويحيي يديها بالأساور، وأصابعها بالخواتم، وأذنيها بالحلوق، وكان كل شيء يليق بها، جميلة هي في عُريها وكسوتها، ومسكين هو في عشقه وذهوله.

وحل عيد فينوس الكبير الذي تعيد له قبرس من أذناها إلى أقصاها، فاحتشدت الجموع في معبد الإلهة الفتانة، وشرعوا بإقامة الطقوس الدينية، فألبسوا قرون العجول ذهبًا وقربوها لها، وأحرقوا البخور في كل ناحية، وقدموا لها التقادم، وطلبوا إليها أن تمنحهم ما هم في حاجة إليه، وفينوس كريمة على عبّادها لا تبخل عليهم، ولا تردّ طلباتهم خصوصًا في عيدها هذا الكبير.

وكان بغماليون بين المحتشدين فقدّم للإلهة تقدماته ووقف أمام هيكلها وخاطبها قائلاً بلهجة الحيي: «أيتها الإلهة المحبوبة، إذا كان حقًا أنك تستطيعين أن تمنحي جميع ما يُطلب منك، فأتوسل إليك أن تمنحيني زوجة، تكون شبيهة بذات التمثال العاجي»، ولم يجروا أن يطلب منها العذراء العاجية نفسها. وكانت فينوس حاضرة عيدها قاعدة في

أعلى الهيكل محللةً بالذهب، فأصغت إلى ما طلبه منها بغماليون، وأدركت أنه إنما يريد العذراء العاجية زوجاً لا غيرها. وهل تخفى على إلهة الحب حيل المحبين؟! فأظهرت له إرادتها الحسنة نحوه بأن جعلت النار الموقدة تشتعل من نفسها ثلاث مرات، وترسل لهبها نحو السماء، فعاد بغماليون مطمئناً إلى منزله، وكان قد وضع العذراء العاجية في الفراش، فأنحنى فوقها يقبل فمها، فإذا به يحسُّ حرارةً ونفساً، فمد يده إلى صدرها وغمزه بأصبعه فشعر بأنه يغمز لحمًا طرياً، فدُهِش وبُهِت، ثم أخذ يجسُّ هنا ويجسُّ هنالك، حتى أثبت أنها جسم بشري حي تجري الدماء في عروقه، فركع على ركبتيه ورفع للإلهة الحنون على العشاق أي الشكر والثناء، وعاد إلى عذرائه يرشف ثناياها، فأحست بالقبلة فاحمرت حياء ورفعت نظرها نحو النور فرأت السماء ووجه عاشقها في وقت معاً.

وكانت فينوس قد التحقت ببغماليون؛ لأنها لم تكن تأتي أمراً إلا أتمته، فظهرت له ولعذرائه في جلالها وبهائئها وعقدت لهما الزواج في عرس خفي لم يحضره إلا كوبيدون ابنها إله الحب والأزهار والزنايق، ولم يكد القمر يجمع قرنيه تسع مرات حول قرصه حتى ولدت هذه المرأة الشابة بنتاً سميتها فابوس، حملت الجزيرة التي وُلدت فيها اسمها من بعدها.

وتزوجت فابوس ملك بانشاي «آشور» من بلاد المشرق، فولدت له سينيراس، فتولى الملك بعده ناعم العيش إلى أن كبرت بنته مرة، وليته لم يلد لها، فقد كانت مسخاً وشوماً عليه وعلى نفسها، ولكنها أحسنت إلى البشر بأن ولدت لهم إلهاً.

ما نهدت مرة وصارت تشعر بما تشعر به النساء حتى عشقت والدها عشق جنون، اهتزت له فينوس غضباً، وأُنبت ابنها كوبيدون، فتبرأ من السهام التي أصابت قلب هذه الفتاة، وكانت مرة جميلة كل الجمال حتى إن شبان المشرق كلهم كانوا يتمنون أن يشاطروها مضجعها فرفضتهم، وفيهم السري الجميل، والمثري النبيل، وكانت تدرك أن حبها لوالدها حب غير طبيعي ولا شرعي، فجعلت تقاوم عاطفتها الملحة، وتساءل الآلهة باكية أن تصرف عنها هذه الكأس المرة، وتساعدها على التخلص من هذا الحب القاتل، ولكن الآلهة أصمت أذانهن عن ندائها وحولت عنها عيونها.

وكان ألد شيء في قلبها، وأعذبه في فمها، أن تقبل والدها وتضمه إلى صدرها، وشد ما تمننت لو تكون في بلاد الفرس، حيث يباح للآباء الزواج ببنااتهم، إذاً لَمَا كانت تلاقى هذه العذابات، ولما كانت تأتي أمراً إذاً.

وأخيراً حينما رأت أن حبها مجرّم، وأنه ليس في مُكنتها أن تبوح به وهل بوسعها أن تزاحم أمها الحنون؟! وهل يرضى أبوها عن عاطفتها المجنونة؟! لما رأت كل هذا عزمت

على الانتحار، فتناولت زُنارها الحريري وربطته على عنقها، وشدته شدةً أزرقاً لها وجهها وجحظت عيناها. واتفق أن فيروز مربيتها العجوز كانت واقفة على بابها، فسمعت حشجة أنفاس فدفعت الباب ودخلت، فرأت مرة على وشك أن تلفظ روحها، فقطعت الزُنار وحلته عن عنقها، وقعدت بها تسندها إلى صدرها وتسالها ما بها، فلا تجيبها بسوى البكاء والزفرات.

ولكن العجائز لا يعجزن عن انتزاع أسرار الفتيات، فأخذت تقسم على مرة أن تطلعها على ما بها، وهي تدبر أمرها مهما صعب وتعقد، فترددت مرة حياءً، ثم دسَّت وجهها في صدر مربيتها وفاهت بسرّها الرهيب، فارتعدت المريية لأول وهلة، ولكنها تمالكت مدركة أن لا مندوحة لها عن إنقاذ ربيبتها، فطبَّبت نفسها ووعدها بأن توصلها إلى من يحبه قلبها.

ومرت ليالٍ على مرة كانت إذا نامت فيها حملت بأبيها، وإذا سهرت أخذت تؤنِّب نفسها، وتقول: كيف يصح لي أن أزاحم أُمِّي وأحمل من أبي فألد ابناً أكون له أُمًّا وأختاً ويكون له أبي أباً وجداً؟

وجاء موسم سيريس إلهة الزروع، وكانت أمهات الأسر النبيلة يحتفلن به احتفالاً رائعاً، فيلبسن ثياباً بيضاء كالثلج، ويقدِّمن للإلهة عقوداً من السنابل، باكورة الغلال، وينقطعن تسعة أيام عن ملذات فينوس وعن مقاربة أزواجهن، فانطلقت الملكة كولشيريس، أم مرة، إلى الموسم لتقوم، مع نساء المدينة، بتلك الأسرار المقدسة. وفيما كانت غائبة عن فراشها جاءت العجوز الملك سينيراس، وقعدت إليه تحدّثه، ثم أخبرته أن فتاة شغفت به شغفاً شديداً ولم تسمّها له، وإنما امتدحت لديه جمالها وصباها، فسألها الملك عن سنّها، فأجابته: هي في سن بنتك مرة. فسأل لعاب الملك، وأتّى له وهو في الشيوخوخة أن يقع على فتاة جميلة في سن مرة؟ فأمرها بأن تقودها إليه الليلة، فافتّر ثغر العجوز الأردد بشراً، وبادرت إلى مرة تبشرها قائلة: النصر لنا. ولكن مرة، على ارتياحها، لم تستسلم بملء نفسها إلى الفرح، فقد لبثت متخوفة.

ولما سكت الليل جاءتها العجوز، وأخذت بيدها اليسرى تقودها إلى فراش أبيها، وتركت لها اليمنى تتلمس بها الجدران لتهدئي في جِنْدِس ذاك الليل الطامس، وقد تعثرت مرة ثلاث مرات، فكان الألهة جعلت لها من كل عثرة هاتفاً ينبهها إلى العدول عن الذهاب وإلى العودة إلى غرفتها فلم ترعو، ونعقت بومة ثلاث نعقات منكرة، فانتبهت مرة إلى صراخها المحزن المشئوم، ولكنها لم ترجع، لبثت سائرة حتى أوصلتها العجوز إلى غرفة أبيها،

وسلمت إليه يدها في الظلمة الحالكة قائلة له: خذها فهي لك. فجمعت بخبثها ودهائها جسميهما الملعونين، وربما كان من حق التفاوت في السن أن تدعوه مرة بأبيها في حال المضاجعة، وأن يدعوها بابنته، حتى لا ينقص شيء مما يخالف الشرائع ويدنسها. وعلقت مرة من أبيها، وتلقت في أحشائها زرعاً نجساً، وحملت في بطنها ثمرة الخيانة، وتجددت خيانتها في الليلة الثانية، ولبثت تتجدد كل ليلة حتى آخر يوم من أيام الموسم، وكان الملك سينيراس قد تبرّم من توارى هذه الفتاة عن عينيه، وأراد أن يعرف صورتها، فجاء بمشعل أدناه منها، ولما عرفها وتمثّلت له الجريمة بهولها، عقل الحزن والغضب لسانه، وأسرع إلى سيف معلق بالجدار فتناوله واستلّه من غمده، والموت يلمع على شفرته، والتفت إلى حيث كانت مرة ليرديها به، فلم يرَ لها أثراً، فقد كانت انسلت من الغرفة وسترتها الظلام فنجت، وسارت تاركة العريبة الخصبه بالنخيل، وأرض بانشاي، تضرب في السهول والأوعار، ولا تعرف الراحة ليل نهار، فمرّت عليها تسعة أشهر وهي تمشي حتى وصلت إلى أرض سبأ، فوفقت وقد أوهنها التعب وأحسّت أن حملها قد ثقل عليها، فهي لا تستطيع سيراً، وانطرحت أرضاً تننّ تعباً ولا تعلم ماذا تسأل الآلهة، وقعت على الأرض ترهب الموت وتكره الحياة، لا تريد أن تموت ولا ترغب في أن تحيا.

رأت أنها استحققت نصيبها في هذه الدنيا، وليس لها أن ترفض العقاب القاسي الذي استأهلته جريماتها، فطلبت من الآلهة ألا تبقى حية لئلا تلوّث الأحياء، وألا تموت لئلا تُدنّس الأموات، وإنما ليُبعد منها الموت والحياة، وليُجعل منها كائن آخر لا ميتاً ولا حياً. وكان في السماء بعض آلهة منصتين إلى اعترافات مذنبى الأرض، فسمعت إلهة منهم طلباً مرة فحنّت عليها، وأجابتها إلى ما سألت وحوّلتها إلى شجرة حملت اسمها «شجرة المر»، وتركت دموعها تسيل من الشجرة عطرًا طيبًا يجمعه عابرو الطريق.

وكان الجنين لا يزال في بطن مرة وقد اكتملت أيامه، فجاءها المخاض وأخذتها الآلام ولم تكن تستطيع الكلام لتدعو «لوسين» الإلهة التي تساعد الحبالى في وضعهن، لكن «لوسين» لم تكن تخفى عليها خافية، فأدركت أمرها وانحدرت من أعلى السماء إلى مساعدتها، وإذا بالشجرة تتلوى تلوىً عنيفاً، ثم تنشق ويخرج الطفل من أحشائها، فاستقبلته حوريات الماء وأضجعنه على مهد من العشب. وكان الطفل جميلاً يستهوي قلب كل من رآه، حتى الحسد نفسه فإنه أعجب بجماله. هكذا وُلد أدونيس الإله الفينيقي، وحوريات الماء هن اللواتي اخترن له هذا الاسم اللطيف.

وشعرت فينوس إلهة الجمال والحب بأنه وُلد في الأرض طفل عجيب بجماله، فأبت إلا أن تكون لها يد في تربيته، فانحدرت إلى الأرض في مركبتها التي تجرها حمام بيضاء،

وأخذت أدونيس الطفل من حوريات الماء ووضعت في صندوق، وأقفلت عليه وسلّمته إلى فرسيفين، ملكة الجحيم، أخذة عليها عهدًا بالأّ تفتحه وأن تعيده إليها ساعة تطلبه منها، ثم مضت طائرة على مركبتها إلى جبال الآلهة، ولكن فرسيفين لم تراخِ عهدها؛ فقد رابها الصندوق واشتهت أن ترى ما فيه ففتحتة، ورأت ذلك الطفل يشع فيه كالكوكب فسُحرت بجماله واحتفظت به لنفسها، ولم تستطع فينوس أن تنتزعه منها، فتحاكمتا إلى جوبيتر الإله الأعظم، فقاضى بأن يكون الطفل أربعة أشهر لفرسيفين وأربعة أشهر لفينوس وأربعة أشهر حرًا بنفسه.

مرّت السنون فشبّ أدونيس الذي كان أختا أمّه وابنها مقفلًا عليه في قلب شجرة، وترعرع وصار فتىً بسمات الحياة ملء إهابه وآياتُ الجمال حشو ثيابه، وكان قد خرج من حكم وصاية فرسيفين وفينوس عليه، وصار رشيدًا حرّ التصرف بأمر نفسه.

وكانت عشرتوت (فينوس) تتقصى أخباره من حوريات الغابات؛ لأنها كانت تعلم أنه يحب الصيد ومطاردة الوحوش. وذات يوم عنّ لها أن تنزل إلى مغارة أفقا في لبنان، فتبتد بمائها الصافي الزلال، فمرّ أدونيس من هناك اتفاقًا وقد تفتقت أزهار جماله فافتتنت عشرتوت به ولم يأبه لها، فكأنه أراد أن ينتقم منها لما سببته لأمه من الآلام بذلك الغرام الذي ألهمت إياه. ويظهر أن كوبيدون، الإله الصغير مثير الحب بسهامه، قد لامس بأحد أسهمه، عن غير قصد، فواد أمه فجرحه، وأحست آلام الجرح فغضبت على كوبيدون، وطرده من أمامها، ولكن سمّ السهم كان قد فتك فتكته، فشغفت عشرتوت بأدونيس أشد الشغف، وتركت من أجله شواطئ «قيثيرا» جزيرتها الساحرة في الأرخيل، وعشرة بافوس، مدينتها القبرسية التي يحيط بها بحر عميق، وأهملت كل الجزر التي تحبها حتى السماء، وفضلت أدونيس عليها جميعًا، فتعلقت بأذياله، والتحقت به في لبنان ترافقه أينما ذهب، فترقد معه في ظلال الخمائل، ويتيهان معًا خلال الغابات والجبال والصخور المكسوة بالطلب والعليق. ولكنه على استئناسه بها لم يبادلها الحب ولم يشف غليلها بقبلة كانت تحترق جوّى لاجتنائها من ثغره الربيعي.

وكان أدونيس صيادًا ماهرًا مولعًا بصيد سباع الوحوش، فكانت عشرتوت تثير له الكلاب فتتبع هذه الصيد وتسُدّ عليه مذاهبه، فيأسره أدونيس دون ما خطر، وعشرتوت سائرة إزاءه مشمرة ثوبها فعل ديانا إلهة الصيد، فتفر من أمامها الأرانب والغزلان والأراوي والنعام.

غير أنها كانت تخشى على أدونيس السباع الضواري، فتعظه قائلة: كن شجاعًا تجاه كل ما يفرُّ من أمامك، ولكن حذار الجرأة على الأجراء فإنها خطيرة عليك، إن جمالك

وشبابك اللذين فتنا عشتروت لا يحسنان أن يفتنا الأسود، فيياك يا حبيبي الشاب أن تخاطر بسعادتي التي هي أنت وحدك، لا تصارع الوحوش المفترسة التي سلحتها الطبيعة بسلاح قويٍّ، فالأسود والخنازير والحيوانات المتأبدة إياك أن تدنو منها.

فبُهِت أدونيس لوصيتها، وسألها: ما هو سبب خوفك عليّ من هذه الحيوانات؟ فأضجعت وإياه تحت حورة مسدولة الأغصان قرب ينبوع أفقا، وقالت له: أصغ إليّ أحدثك حديثاً عجباً: كان على أركاديا ملك يقال له: ياسيوس من سلالة ليكاوون أول ملوك اليونان، ولم يكن لهذا الملك ولد يخلفه في الملك بعد موته، فطلب من الآلهة أن يرزقوه ولداً ذكراً يرثه، فحبلت زوجته ولكن الآلهة رزقته بنتاً ولم ترزقه غلاماً، فاغتاظ وأمر زوجته أن تلقيها على الجبل البرتينياني، فلم يسعها مخالفته، فحملتها أمها إلى هذا الجبل وتركتها إلى ما قدر لها الآلهة من نصيب، واتفق أن مرت بها دُبّة، فحنت عليها وحملتها إلى وجرها تقوتها بحليبها إلى أن شبّت وبلغت مبلغ النساء، وتعلّمت رماية النبال، فكانت تصطاد الحيوانات، وقد أكسبها كلفها بالصيد سرعة العدو، وكانت ذات جمال وحفاظ شديد على بكرتها، وفي أحد الأيام بينما كانت تطارد الوحوش هاجمها حيوانان مخيفان يقال لهما السانتور، فلم ترهب ولكنها أوترت قوسها ورمتهما عنه بسهمين أصابا مقاتلتهما فخرّاً لليدين وللهم صريعيّ سهامها.

واتصل خبرها بأبيها الملك فهفا قلبه؛ وهل هي إلا ولده وقطعة من كبده؟! فجاء بها إلى قصره، فكانت عنده بمنزلة روحه.

هذه الفتاة هي أتلانت العذراء التي لا يعرف رائيها أيفتنه منها سحر جمالها أم تأسر فؤاده خفة رجلها، وكان أبوها يرغب في تزويجها لتلد له وارثاً لمملكته، ولكنها كانت تكره الزواج وتفضل أن تبقى بكرّاً. وألحّ عليها ذات يوم فانطلقت إلى هيكلي تستشيرني وتطلب مني أن أجيئها بلسان هاتفي، وأقول لها: هل يمكنها أن تتزوج؟ فأجبتها: كلاً! ولكنك لن تفريّ من الزواج، وسوف تتركين ثوبك هذا البشري، وتلبسين ثوباً آخر دون أن تتركي الحياة. فخافت أتلانت من هذا الجواب، واعترلت المدينة وخرجت تعيش في عمّة الغابات منصرفة إلى الصيد، غير أن الشبان الذين كانوا قد رأوا جمالها وفُتتوا بها وطلبوا يدها فرفضتهم التحقوا بها إلى الغابات. واشتهر جمالها في بلاد الإغريق فقصدها الشبان، أبناء الملوك والأمراء، يخطبون ودها ويسألونها رضاها عنهم، فلما رأتهم تكاثروا عليها وضايقوها بولوعهم بها أرادت أن تتخلص منهم، فشرطت عليهم أن تتسابق جرياً على الأقدام وكلّ من يرومها زوجة له، فإذا سبقها تزوجته، وإن سبقته رمته عن قوسها بسهم يقتله، فرضوا بشرطها فذهبوا ضحايا حبها.

و ذات يوم حضر السباق ولد يدعى هيبومين، وكان في أول الأمر يضحك من الشبان الذين يستسلمون للقتل من أجل امرأة، ولكنه لما رأى وجه أتلانت وجسمها، وقد كشف الهواء ثوبها عنه، رفع يديه شأن المتوسل، وخاطب المستعدين للسباق قائلاً لهم: «عفوكم أنتم أيها الذين كنت ألوكم، فإني لم أكن قد عرفت قيمة المكافأة التي تتهاكون في سبيل نيلها».

وشعر منذ ذلك الحين بحب شديد لأتلانت حتى إنه كان يرجو ألا يسبقها أحد، ولكن من يستطيع مسابقة النسيم؟! وعزم على أن يجازف بحظه لعله يسبقها، فيحظى بها أو تسبقه فيموت بها. وفيما كان يفكر في هذا كانت عذراء الغابات طائرة في عذوها، وبينما كانت تطوي المسافات كالسهم المارق كان هيبومين ينظر إليها فيشاهد جمالها، ويرى شعرها متطيراً على كتفيها، وأطراف سيور حذائها المطرزة تتلاعب على ساقها فتزين ركبتها، وبياض بدن العذراوي الملون بالوردي يتلألأ في لون بقايا الشفق. وبينما هو مأخوذ بهذه المشاهد، إذا بها عائدة وعلى رأسها إكليل الزفر، والمغلوبون يرانونها المرانة الأخيرة.

فدنا منها هيبومين وسألها أن تأذن له بمسابقته، وقال لها: ماذا تجديك هذه الانتصارات التافهة على خصوم ضعفاء؟! تعالي وسابقيني فإن غلبتني غلبت حفيد نبتون إله البحار وابن سبط ملك المياه، وإذا غلبتك فلن تكون غلبة مثلي لك عاراً عليك. وكانت تنظر إليه وهو يتكلم فراقها حسنه وجرأته على صغر سنه، وشعرت بحب له، ولكنها لا تستطيع الزواج به، وخشيت أن تسبقه، إذا سابقته، ولا تريد قتله، فتلطفت إليه تحاول إقناعه بالعدول فلم يقنع، فأجابته إلى طلبه مرغمة، لا سيما أنها شعرت بحبه لها، وبعزمه على المغامرة بنفسه بغية الوصول إليها، ولامت عينها اللتين وقفتا عليه، فشاهدتاه وشاهدتا آيات الطفولة العذراء على وجهه.

وكان الحاضرون قد ملوا الانتظار فصاحوا طالبين السباق وتأهبت أتلانت للعداء. قالت عشتروت: فطلب مني هيبومين أن أعينه، فمس فؤادي طلبه، فاندردت إليه من عليين وأخفيت نفسي عن الحاضرين وترأيت له وحده، وسلمت إليه ثلاث تفاحات، جنيتها من حقل تامازوس في قبرس، وعلمته ما يفعل بها، ونفخ بالأبواق فعدت أتلانت وعدا هيبومين، فكانت تسبقه ثم تقف فتتنظر إليه وتتنظره، ثم تعدو فتقدمه أشواطاً، ولما قطعاً مسافة رمى إليها بتفاحة فتراجعت لتأخذها فسبقها، ولكنها التحقت به وتجاوزته، فرمى بالتفاحة الثانية ففعلت فعلها الأول، وكان الحاضرون يحمسون هيبومين ويصيحون: اسبقها اسبقها. فرمى بالتفاحة الثالثة، وكانا قد قربا من الهدف، فترددت عن الرجوع

إليها، فدفعتها سراً نحوها، فكرت تريد التقاطها، فسبقها واستولى على الهدف وتزوجها، ولكنهما في فرحتهما نسياً أن يكرمانى ويشكرانى على حسن صنيعى وندسا هيكلى فغضبت عليهما وحولتهما إلى أسد ولبؤة، هذان هما اللذان أخافهما عليك؛ لأنهما يضمران لي غدراً وانتقاماً.

أوصت عشروت أدونيس وصيتها واعتلت مركبتها التي تجرها الحمائم، وطارت في الهواء منطلقة إلى قبرس في أمر يُعجلها، وكان أدونيس شجاعاً غير هيأب، فلم يراقب وصاة عشروت، وكانت كلابه قد اتبعت آثار خنزير بري في مشارف لبنان فأثارت من مجثمها فانطلق يسعى إلى الخروج من الغابة، فأرسل إليه أدونيس سهماً فجرحه، فهاج وانقض على أدونيس فدعّر منه، وجعل يبحث عن ملجأ يتقيه فيه، غير أن الخنزير الجريح الهائج أدركه وطعنه بقرنيه قرب ثنودته فشكه وألقاه على التراب يسيل دمه. ولم تكن بعد عشروت قد وصلت إلى قبرس، فحانت منها التفاتة فرأت أدونيس مضرجاً بدمه، فقفزت إلى الأرض تبكيه وتدبه، وتلوم القدر الذي جعلها تبتعد عنه فيفتك به ذاك الوحش المفترس، ثم خاطبته قائلة: كلا يا أدونيس الحبيب! لن تخضع لشريعة النسيان، فسيبقى منك دائماً ذكرى لألمي، ويمثل مشهد موتك في كل سنة، ويُذكر بنواحي عليك، وسيتحول دمك إلى زهرة جميلة، قالت هذا وأخذت كأساً من كوثر الآلهة وصبتها على دم أدونيس، فغلى الدم عندما لامسه شراب الآلهة المعطر، ولم تمض ساعة حتى تولدت منه زهرة حمراء تشبه زهرة الرمان، تُخفي بزرها تحت قشرة طريئة، ولكن لا يمكن التمتع بمنظرها طويلاً؛ لأنها خفيفة ودقيقة الساق تنقطع بسهولة وتسقط في مجرى الرياح.

هذه الزهرة التي تحول إليها دم أدونيس هي زهرة الشقيق، أما جسده الجميل فقد غطته عشروت بورق الخس والخبّازى ودفنته بيديها في أفقا، في ذاك الإطار البديع الذي يؤلفه أجمل مجرى ماء وأروع منظر طبيعي يلفه الاخضرار النضر من أية ناحية رنوت إليه.

وكانت عشروت في تولها وتفجّعها على أدونيس قد أضاعت شيئاً من رشدها، فطفقت تمشي على الورود البيضاء، فتغرّز أشواكها بقدميها الطريتين وهي لا تنتبه، حتى سال دم قدميها على الأشواك فنهلته، وتسربّ منها إلى الأزهار البيضاء، فاصطبغت بلونه وتحولت إلى ورود حمراء، ومنذ ذلك اليوم صارت الوردة الحمراء رمز الحزن على أدونيس الجميل.

(٢) قدموس وأوروبا

حدثتنا الهواتف في إحدى ليالي السمر، قالت: كان في الزمان القديم في فينيقية ملك ذو عزة وسلطان يقال له آجينور ابن بوسيدون إله البحار ومزعزع الأرضين، وكانت زوجته صور حورية من حوريات الماء تصيدها على الشاطئ الفينيقي، وأذن له والده بأن يتزوجها، فبنى على الشاطئ مدينة سماها باسمها وجعلها عاصمة ملكه، فولدت له صور أولادًا كثيرين فيهم قدموس، فتى قوي الأجلاد شجاع الفؤاد كأنه قد من جلاميد لبنان، وأوروبا فتاة كصباح لبنان بهاء، ونصوع ثلج ونضارة أوراها لونًا، وزبد ينابيعه بضاضة، ولطف نسيمه حديثًا، وحبها ملكرت إله صور، فوق ذلك، فطنة وكياسة، وظرًا جعل أباه يولع بها ولا يطيق بعدها عنه، وكم ردًا من طالب ليدها خائبًا حسيّرًا حينما بلغت عمر البدر وتزاحم الشبان على عتبة باب قصرها.

وكانت أوروبا قد تعوّدت منذ طفولتها أن تذهب بعد ظهر كل يوم إلى شاطئ البحر مع لِداتها من عذارى صور، فيلعبن هنالك زِيَّافات على حصى الشاطئ، ويبتردن بماء البحر، حتى إذا أمسى المساء عدن إلى منازلهن، وعادت أوروبا إلى قصر أبيها تزهو جمالًا وشبابًا.

وذات يوم بينما كانت وأترابها، كعادتهن على شاطئ البحر، كان جوبيتر (زفس) جالسًا على عرشه الإلهي يرمي الأرض بعينيه من أعالي سماءه، باحثًا عن إنسية ينسى معها مله لفراش جونون (هيرا) زوجته، وجوبيتر مشهور بولعه بالإنسيات الحسنات، ولكنه كان يخشى غيرة جونون وانتقامها من اللواتي يحلن في عينيه، وكثيرًا ما فاجأته مع بنات الأرض؛ لأنها كانت تراقبه دائمًا؛ لعلها بزُورة أمانته لها، فكان يتستر بالغمام فلا تظن له إلا بعد أن يكون قد قضى لبانته من صيده، وكم من جناية جنى على بنات الأرض وتركهن عرضة للانتقام ربة الأولب، وقصته والحسناء اليونانية إيُو شهيرة في الأولب وعلى الأرض. اختطف هذه الفتاة فباعته جونون ملتفًا وإياها بالغيوم، فلما أحسَّ وقع قدميها حوّل إيُو إلى عجلة، فلم تجز حيلته على جونون، فأخذت العجلة وحبستها، غيرة منها، على رأس جبل، وعهدت بمراقبتها إلى أرغوس ذي المائة عين، فعبرت تلك المسكينة أيامًا ملؤها شكوى وعذاب إلى أن حنَّ قلب جوبيتر وشاء إنقاذها. ومن تراه يقوم بهذا الأمر إلا مركور رسول الآلهة؟! فبعته جوبيتر إلى الأرض فنومَّ بنغمات شبَّابته عيون أرغوس عينًا عينًا ثم قتله، وأنقذ إيُو فعدت إلى جسمها الإنساني، وسكتت جونون على مضض، ولكنها كافأت أرغوس بأن حولته إلى طاوس، وجعلت عيونه دوائر على دَنَبه ملوَّنة بألوان قوس السحاب.

وهناك مئات من بنات الإنس لها بهن ربُّ أرباب الأولب، ثم تركهن إما خشية من جونون أو لافتتانه بأخريات من جنسهن.

أما في ذلك النهار فكان قد مرَّ عليه زمن طويل لم يعث فيه بإنسيَّة، زمان أظهر فيه لجونون أنه تاب إلا عن حبها، فصدقته أو تظاهرت بتصديقه، وهل يمكن خداع المرأة في شئون الحب؟! ومهما كانت الحال فقد غفلت عنه فشعر بنعمة الحرية، وجعل يرصد الأرض حتى وقعت عيناه على جبل قريب من صور، انتثر فوقه قطيع من الثيران ملك تلك المدينة، فتذكر أن لهذا الملك ابنةً آيةً في الجمال، وأنه كان يلحها بعد ظهر كل يوم على رمال الشاطئ فلا يأبه لها، فأدار عينيه إلى هناك فإذا به يراها تشع في الشمس كفلذة من الماس، فارتقص فؤاده تشهياً، وقال في نفسه: ما دامت جونون غافلة عني فلأنحدر إلى أرض صور، وأختطف هذه اللؤلؤة السنية، وأذهب بها إلى حيث لا تراني عين.

قال هذا ولكنه تردد هنيهة عن النزول إلى الأرض ليبتدع حيلة يتمكن بها من الدنو من أوروبا، فأنارت له مخيلته سبيل الحيلة، وهل يعجز ربُّ أرباب الأولب عن ابتداع حيلة؟! فدعا إليه ولده مركور وقال له: يا بني، أيها الأمين على تنفيذ أوامري، اهبط الأرض في السرعة المعهودة بك ترَ على شمالنا بلادًا يرفع أهلها عيونهم إلى سمائنا تعبدًا لأمك، بلادًا يسميها سكانها صور، هناك على الجبل المجاور لها قطيع من الثيران يرعى العشب الأخضر فسُقّه إلى شاطئ البحر.

لم يقل جوبيتر كلمته حتى انتعل مركور نعليه الذهبيتين المجنّحتين اللتين تمسكانه في الهواء، وتطيرانه فوق الأرض وفوق البحار بسرعة الريح، وحمل بيمينه مخصرته الذهبية التي يقود بها الطيوف الشاحبة من ظلمات الجحيم إلى أضواء السماء، أو يقودهم إلى تلك الظلمات المحزنة. بهذه المخصرة يفتح العيون التي أطبقها الموت، ويتسلط على الرياح ويجتاز العواصف. هكذا انحدر مركور من أعلى عليين كالشهاب اللامع، وإذا بالثيران تتزاحم نحو الشاطئ حيث تلعب بنت الملك والبنات الصوريات، فلما أبصر جوبيتر هذا تزيًا بزّي ثور أبيض، وسقط على سحابة بيضاء إلى الشاطئ السوري، واختلط بالثيران السود يخور خوارهم، ويرعى مرعاهم ويتخطر معهم على رمال الشاطئ، وكان لونه يلمع لمعان الثلج تحت أشعة الشمس، وعنقه متين العضلات، وعَقبُهُ يتدلى حتى كتفيه، وجعل قرنيه الناصعي البياض صغيرين لئلا تخاف أوروبا منهما.

وأبصرته أوروبا فأدهشها أن ترى بين ثيران أبيها السود ثورًا في هذا البياض وهذا الجمال لا يبدو عليه ميل للنطاح، ولكنها على لطفه وجماله وسكينته لم تجسر أن تلمسه،

فأوحى جوبيتر إليها أن تدنو منه وتداعبه، فدنت وقدمت لفمه أزهارًا بيضاء لا دنس فيها، فذفدظ سرورًا ولعت عيناه غبطة ولحس يدها: قبلَّة خفية بث بها لواعج فؤاده، ثم جعل يزحمها بكتفه زحمًا لطيفًا، ويقفز على العشب الأخضر قفزات الغنج والدلال، أو ينبطح متقلبًا على الرمال الحمراء، فتضحك أوروبا ملء فيها، فتشجع وعرض عليها صدره لتدغدغه بيدها الناعمة، ثم أدنى منها قرنيه لتعلق بهما أزهارًا، ولما رآها أنست به وسكن قلبها إليه حوّل ظهره نحوها يدعوها دعوة صامته إلى الركوب عليه، وكانت أوروبا صبية لعبوًا، فقفزت على ظهره فطفق يمشي بها متمهلاً ويترك اليايسة خطوة خطوة، وهي تلتفت إلى رفيقاتها مزهوة ضاحكة، حتى غمرت المياه قوائمه فسبح مبتعدًا إلى صدر البحر، فسرت في بدن أوروبا رعشة الذعر، وتلفتت نحو الشاطئ فإذا هو بعيد منها، وكانت الريح تعبث بثوبها الأرجواني الهفاهف، فخشيت أن تسقط في اللجة، فأمسكت بيمنها أحد قرنيه، واستندت بيسراها إلى ردفه، وحاولت أن تديره نحو الشاطئ ليعود بها ولكن هيات ما أرادت، ولما غاب الشاطئ عن ناظرها دبّ الرعب في قلبها وصاحت تستغيث جوبيتر، وإذا بالثور يخلع عنه ثوبه الثوري، ويبدو في ثوب من النور وهو يقول: ها أنا ذا من تدعين! فليبك. لا تخافي وإنما تيهي جمالًا ودلالًا. أليس من العزة والسؤدد أن تسترقي رب الأولب وتجعليه مطية لك؟ ثم حملها إلى برية ديكتة، في الشاطئ الجنوبي من جزيرة إكريت، وتزوجها تحت شجرة دلب خلدت عليها أوراقها منذ ذلك اليوم، فهي لا تيبس ولا تسقط أبدًا.

هذا ما كان من أمر أوروبا. وأما ما كان من أمر والدها آجينور وأخيها قدموس، فأصغ إلى ما حدثت به الهواتف: وقفت عذارى صور مأخوذات دهشة ورعبًا حينما رأين الثور الأبيض يحمل أوروبا ويسير بها في البحر، ولبثن متوقعات أن يعود بها، حتى هبط الظلام وهبت أنسام الليل الباردة، فعدن إلى بيوتهن يكتمن حزنهن خشية من الملك الذي كن يعرفن تعلقه بابنته.

دَمَس الليل وأوروبا لم ترجع إلى قصر أبيها، فتلبل القصر وريعت نساؤه ورفعن الصوت معولات، فسمع الملك صيحتهن فأقبل مبعوثًا يتقصى الخبر، ولما علم بغيبة ابنته صُعق، وما ثاب إلى نفسه حتى بادر بإرسال العبيد والإماء يجوسون بمشاعلهم شاطئ البحر وأنحاء المدينة لعلهم يرون لها أثرًا أو يعرفون خبرًا، وكان قدموس يعرف أتراب أخته، وكثيرًا ما كان يغازلهن ويلطفهن، فأسرع لائح القلب إليهن يستطلعهن أمرها، فأخبرنه بما كان من الثور الأبيض. ولم تكن حيل جوبيتر في تخطف الإنسيات بخافية على

أحد، فأدرك قدموس سرَّ فقدان أخته وعاد إلى أبيه بالخبر اليقين، ولا تسل عن احتدام غضب آجينور على جوبيتر ولا عن الشتائم التي أرسلها إليه، وقد ذهبت سدَى استغاثته لجونون حامية صور، فأوروبا لم ترجع ولا هو يعرف أين مقرها، ولما أيأسته الحال نادى على ابنه قدموس وخاطبه قائلاً: يا بني! إنني أمرك أن تطوّف في الأرض كلها لتجد أختك أوروبا وتأتي بها إليّ. وإلا فنفيًا، تنفى من البلاد التي هي تحت سيطرتي، وعش بعيدًا حيث يشاء لك العيشُ إلهَ الحظ.

قال هذا ودخل إلى مقصورته مشتملاً بحزنه العميق، وقعد يرثي بنته وبيكي. بكى هذا الملك الجبار الذي لم تكن، من قبل، تعرف الدموع عيناه، ولبت الصوريون يحتفلون في كل سنة بذكرى اختفاء أوروبا في ذاك المساء المشئوم، وأللهوها ودعوها الربة القمرية. أذعن قدموس لأمر أبيه واختار من رفقاءه، شبان صور، نفرًا عرف شجاعتهم وإقدامهم، وأخذ معه عبيده وأبحر على سفينة قوية البنيان، فطاف في البحر المتوسط الشرقي كله: من إكريت إلى رودس فثاروس فتراقية، فلم ير لأخته أثرًا. ومن تراه يستطيع كشف ما شاء جوبيتر إخفاءه!؟

ولبت قدموس يسير ليل نهار إلى أن وصل إلى يوثيا في اليونان فأَمَّ معبد أبولون في دلف، وقرب له ذبيحة وسأله أن يدلّه على الأرض التي يمكنه السكنى فيها، فأجابه أبولون بلسان بيثي هاتفته: أن انقطع عن البحث عن أختك وسر في الحقول المنفردة تر عجلة لم يعرف عنقها النير ولا تعبت قوائمها بجر المحراث، فاتخذها دليلًا لك واتبعها حيث تسير، وحيثما تقف قف، وابن سور مدينة تدعوها بيوثي.

عاد قدموس من المعبد، ولجأ في تلك الليلة إلى مغارة كاستالي، ولما برقَ الفجر انحدر ورفاقه من المغارة وساروا سيرًا ليّنًا، وإذا بعجلة تطلع عليهم لا أثر في عنقها لعبودية النير، فاتبعها ومن معه ماشين على خطاها، وهو يصلي في قلبه لأبولون الذي رأف به وهدهاه. وبعد أن اجتازوا حقولًا ومروجًا وقفت العجلة، ورفعت نحو السماء جبهة يزينا قرنان طويلان وعجت عجيًا هز الهواء هزًا، ثم التفتت إلى قدموس، وانبطحت على العشب الطري كأنها تقول له: هنا ابنِ سورك، ثم توارت ذائبة في الفضاء، فشكر قدموس إلهه وقبل تلك الأرض الغربية وحيًا الجبال والبراري التي تحيط بها، وعزم على تقديم ضحية تكريمًا لآلهة تلك الأرض واستنداء لعطفهم وعونهم، ولكن لا بدّ من الوضوء قبل التضحية، ولم يكن هناك ماء، فأرسل بعض رفاقه وعبيده ليجثوا عن ينبوع يستقون منه، وكان في جوار ذاك المكان غابة عذراء لم تُضرب فأس على شجرة من أشجارها، وفي وسطها مغارة تظللها

صفصافة مهدلة الأعصان مصففة الأوراق، وفوق المغارة حجارة مرصوفة في شكل قبة، وأمامها عين ماء ثرثرة، وكان في أعماق تلك الخلوة ثعبان كبير أزرق اللون هو ابن المريخ (مارس) رأسه ساطع كالكوكب، واللهب ينبعث من عينيه وجسمه يذخر بالسم، ويندلع من فمه ثلاثة أسنة كتلاثة أسهم من نار بين ثلاثة صفوف من أنياب محددة كالأسنة. ولم يكد الشبان الصوريون يدخلون وعبيدهم هذه الغابة المشؤمة ويضعون أجاجينهم في ماء العين ليملئوها حتى أبرز الثعبان الأزرق رأسه من مغارته وصفر صغيراً راعباً، فسقطت الأجاجين من أيديهم وجمد الدم في عروقهم وعرتهم قشعريرة باردة، وإذا بالثعبان يلوي ذنبه حلقالاً ويزحف متمعجلاً، ثم تقوس ذنبه قوساً عظيمة زنرت الغابة كلها، فترجع الفينيقيون ليمكنهم رميه بسهامهم والفرار من وجهه، ولكنه انقض عليهم، فسمرهم الذعر في أمكنتهم، وأعمل فيهم أنيابه فمزق أبدان بعضهم تمزيقاً، وطوق آخرين بذنبه فقطعهم، وسم غيرهم بنفسه فلم يبق منهم حياً.

جنت الشمس إلى المغيب وقدموس ينتظر رفاقه، وأدهشه أن يكونوا قد تأخروا فمشى يبحث عنهم وكان لابساً جلد أسد ومسلاً بحرية لماعة السنان ومزراق خفيف، ومتكئاً بقلبه الشجاع الذي كان يفضل كل الأسلحة، فدخل الغابة وتوغل فيها حتى وصل إلى قرب عين الماء، فرأى جثث رفاقه منثورة قطعاً على الحضيض، والثعبان الهائل يسترهم بعظيم هيكله، ويلحس بلسانه الدماء الفائرة من لحومهم الممزقة، فطار صوابه وصاح قائلاً: لبيكم يا ذوي القلوب المخلصة! فإما أن أنتقم لكم أو التحق بكم إلى عالم الظلمات. ثم تناول بيديه القويتين صخرة كبيرة، ورجم بها الثعبان رجمة لو وقعت على قلعة لزعتها، فلم تؤثر فيه؛ لأنه كان ممنعاً بحراشيف كأنها دروع من زرد مكين، لكن هذه الحراشيف لم تكن لتصد الأسنة عن المرور إلى لحمه الطري، فسدد قدموس إليه مرزاقه، وأطلقه فانطلق يصفر في الهواء صغيراً صادعاً، وسقط من الثعبان في عموده الفقري وتغلغل منه إلى أحشائه، فأحس عندها الألم ولوى عنقه إلى ظهره، فرأى المزراق غارزاً فيه، والدم يفور من مغرزه، فجعل يعجمه حنقاً وألماً ويزعزعه ليخرجه حتى تمكن من نزع قناته، ولبث السنان عالقاً في عظامه، ففح [فحياً]^١ دوت منه الغابة، وطفا على شدقيه رغوة من السم الأسود، وانسل يدور حيناً في شكل لولبي وحيناً ينتصب كالعمود، فترتج الأرض من وقع حراشيفه عليها، ثم قفز قفزات واسعة مرتماً كالشؤبوب المنصب

١ مطموسة بالأصل (الناشر).

يقتلع من الأشجار ما يصدُّه، فلم يذعر قدموس، ولكنه وقف في سبيل انقضاضته كالسدِّ المنيع ومكن حربته من حنكه، فهاج هيجان البركان وعض سنان الحربة وهو ينكفي فغرز السنان في حلقه ولم ينفذ؛ لأن تقهقره حماه نفاذه من قفاه، وكان قدموس يلتحق به ملحاً حتى رأى رأسه يصطدم بسنديانة ضخمة، فضغط بحربته حلقه، فاخرقته والسنديانة معاً، والتوت السنديانة تحت ثقل جثته وتنهدت تحت ضربات ذنبه المتواليه عليها، تلك الضربات التي كان يلفظ بها آخر أنفاسه.

وقف قدموس ينظر إلى ابن المريخ مُحْتَضِراً، وإذا به يسمع هاتفاً يهتف به قائلاً: «لماذا تملي نظرك، يا ابن آجينور، الثعبان الذي قتلته؟ توقع أن تتحول يوماً إلى ثعبان...»، فرُعب قدموس وقفَّ شعره ولبث مشدوهاً لا يدري ما يفعل، فانحدرت إليه مينرفا من أعالي مناطق الهواء، وأمرته بأن ينبش تراب الأرض، ويقتلع أسنان الثعبان ويدفنها في الأرض، فتكون بذوراً لشعب جديد، فأطاع قدموس أمرها وشق الأرض أثلاماً، ونثر الأسنان فيها، ولم تمر ساعة حتى رأى بطن الأرض يتقلقل، ثم برزت منه أسنة حراب كثيرة، فرعوس رجال فأكتاف فأذرع وصدور، فبطون وأفخاذ وسوق، رجال دارعون، مسلحون بالقسي والحراب. فانتضى قدموس حربته وهمَّ بمنازلتهم فقالوا له: لا تخف منا ولا تدخل في حرب أهلية نثيرها بيننا، ثم تراموا بالسهام وتطاعنوا بالحراب فتساقطوا أشلاء، إلا خمسة بينهم بطل عنيد يسمى إيشيون، وفيما هو يطاعن الباقيين من رفاقه مثل أمامه تريتون أحد آلهة البحر، وأمره أن يكف عن حرب إخوانه ويصالحهم، ففعل إيشيون ما أمره به الإله، وانطلق والأربعة الأخر مع قدموس فساعده في بناء مدينة بيوثي التي أوعز إليه أبولون أن يبنيها، وسكنوا معه فيها ونجلوا أولاداً وحفدة فكانوا آباء القبائل الخمس التي تألف منها السبرطيون.

ملك قدموس على بيوثي وعطف عليه المريخ وزوجته فينوس، ورضيا بأن يصهر إليهما فزواجه ابنتهما هرمونيا، وأهدى إليه الإله فولكان رداءً وعقدًا ألبسهما هرمونيا، وكان العقد طلسماً مشثوماً على كل من لمسه ما عدا لابسته، فسبب هلاك كثيرين فاستاءت منه هرمونيا وأهدته إلى معبد أبولون.

وولدت هرمونيا لقدموس سميلاً «الثائرة» وإينو وإريسته، ثلاث بنات امتزج فيهن الجمال اللبباني بالجمال اليوناني.

وبينما كان قدموس جالساً ذات يوم وزوجته هرمونيا مغبوطين بنسلهما سمعا هاتفاً يقول: لا تغتبط يا قدموس بما وُلد لك من بنات، وبما سوف يُولد لك من حفدة وأسباط وحفيدات، ولا تحسب أن سعادتك تدوم، وإنما انتظر ما كُتب لك من آلام.

مرت أيام وسنون على قدموس تكاثرت فيها ذريته، ولكن سعادته كانت دائماً مهددة بما أوعده به الهاتف من آلام، وكان أول ألم نزل به ما أصاب سبطه أكتيون ابن بنته أريسته؛ وذلك أن أكتيون ذهب في بعض الأيام يتصيد في جبل قرب بيوثي، فأعياه الحر والتعب فدخل غار غاني مستظلاً، وكان هذا الغار مقدس ديانا. غابة خضراء في وسطها ينبوع غزير الماء تبتد فيه بنت جوبيتر وحورياتها العذارى حينما تعود وإياهن من الصيد. وكانت ديانا وعذارها حين دخول أكتيون الغار عاريات في الماء، فشاهدن في عريتهن فولولت العذارى حياءً وذعراً ولولاً ملأت الغابة، وغضبت ديانا لأنه رآها عارية وهي عذراء غيور على عذرتها ضنينة بها نذرت المحافظة عليها إلى الأبد، فتناولت ملء كفها ماء ورشقت به، فتحول إلى وعل ونبت له قرنان في أم رأسه، وقالت له: اذهب الآن وخبر، إن استطعت الكلام، أنك شاهدتني وعذاراي عاريات. ففر من وجهها يعدو حتى وصل إلى عين ماء، فنظر فيها فرأى أنه وعل ذو قرنين فبكى.

وكان لسانه قد عُقل فتاه على وجهه حتى وصل إلى حيث ينتظره خدمه وكلابه، فلما أبصرهم دنا منهم يريد أن يكلمهم ويعرفهم نفسه، فلم يستطع إلى الكلام سبيلاً، وشاهدته كلابه، فالتحقت به تطارده ولم يكن في طوقه أن يناديها بأسمائها، طارده كلابه حتى أدركته ومزقته بأنيابها وأظفارها، فاشتفى قلب ديانا العذراء.

أما الألم الثاني الذي حلّ بقدموس، فقد كان مما سببه جوبيتر لابنتيه سميلاً وإينو، وذلك أن هذا الإله، تبع البنات الإنسيات، رأى سميلاً فأحبها، ويظهر أنه كان يُفتتن بجمال كل فتاة من سلالة آجينور، وما عثم أن اختطفها وتزوجها، فغارت منها جونون، وشاءت أن تتخلص منها، لا سيما أنها كانت تبغض كل سلالة آجينور من أجل أوروبا، فانحدرت إلى الأرض في زي بريس العجوز، مربية سميلاً، ودخلت عليها وعلمتها أن تسأل جوبيتر، يوم يأتي إلى زيارتها، أن يحيطها بهالة المجد والعظمة التي يحيط بها زوجها جونون ساعة يكون وإياها في فراش الزوجية. وجاء جوبيتر إلى زيارة سميلاً، فسألته أن يمنحها من المجد والعظمة ما يمنح جونون، وكان جوبيتر يرضن بكل ما هو من حق الألوهية لا يتساهل به أقل تساهل خشية أن يبتدل بين أبناء الأرض المعدين للنفاء، فتعدم ميزات الآلهة، وهكذا لم تكد سميلاً تفوه بما سألته إياه حتى احتدم غيظاً واستل من أحشائها ولده الذي كانت حبلى به وربما بصاعقة أحرقتها، ثم شق فخذة ووضع ابنه فيها وخاط عليه إلى أن تمت أشهره، فأخرجه وسلمه إلى خالته إينو فأرضعته، ولكن الحوريتين ياريا (سارّة) ونمريتس (صادقة) أخذتاها منها وحملتاها إلى جزيرة ناكسوس، فربتاها في مغاورهما تغذيانه باللبن، وسمتاها باخوس، ولما ترعرع خرج من المغاور، وطاف في الشرق يصحبه مؤدبه سيلين

والإله بان وسرب من الحوريات، فافتتح الهند كلها، وعاد إلى جزيرته فاستوى على عرش ألوهية الخمر والنبات الحقلي والغابي والمروج والرياض.

أما إينو فقد تزوجت البطل اليوناني أتاماس ملك أوكومين، فولدت منه غلامين ليركوس وميليسرت، وكان له من زوجه الأولى نيفيله غلامان فريكسوس وهله اتخذتهما جونون أداة لتوقع الشر بين إينو وزوجها انتقاماً من إينو؛ لأنها أرضعت باخوس، فأوقعت في قلب إينو كرهاً شديداً لولدي زوجها. واتفق أن حصلت مجاعة في أوكومين، فأرسل أتاماس يستفتي بيثي، كاهنة دلف وهاتفه أبولون، فيما يصنعه تداركاً للمجاعة، فأمالت إينو قلوب الرسل إليها وجعلتهم يقولون: إن بيثي تأمر بتضحية فريكسوس. فكشفت جونون لأتاماس مكيدة إينو وشردت عقله موهمة إياه أن ليركوس ابنه من إينو وعل فقتله، وحملت إينو على أن تلقي ابنها ميليسرت في مرجل ماء غال فمات، ثم دفعتها فارتمت في البحر فماتت غرقاً وطففت جثتها على وجه الماء، فحملها دلفين إلى خليج قورنثه، وتحولت هناك إلى إلهة بحرية اسمها ليكوثيا تساعد بعطفها ولطفها البحارة المهتدين بالغرق والمعوصف.

نزلت هذه الآلام المرة على بيت قدموس لقتله ابن المريخ وتمليته نظره منه وهو يُحْنَضِر. وتوالت عليه وعلى زوجه هرمونيا أحزان ملاً معها الحياة. وكان جوبيتر قد رُقّ لهما فجعلهما إلهين في ثوبهما الإنساني، ولكنهما لم يعلما بذلك، فهجرا بيوثي يائسين وتوجها إلى إيليرية، وتذكر هناك قدموس أنه معدٌ إلى التحول إلى ثعبان ولا منجاة له مما هدّده به الهاتف، فطلب وزوجه هرمونيا إلى جوبيتر أن ينفذ بهما ما قدّر لهما فاستجابهما، وحوّل قدموس إلى ثعبان وهرمونيا إلى حية ووضعهما في فردوس الجحيم. وكانا أحياناً يخرجان معاً فيجولان في غابات إيليرية متنزهين، ولكنهما لم يكونا يؤذيان أحداً.

(٣) مينوس وأريان

ولدت أوروبا لجوبيتر فيمن ولدتهم مينوس الشاب الجميل، فتولى بإرادة أبيه عرش إكريت، وتزوج صبية جميلة تدعى بازيقابي ولدت له أريان فمنحها جدها جوبيتر صفة إلهية، وأعطاهها خيطاً سحرياً تقود به الضالين.

وفي أحد الأيام ترك مينوس وزوجه بازيقابي في قصره في إكريت، وسافر بجيشه إلى محاربة مدينة ميغار حليفة أثينا لخلاف وقع بينه وبين مليكها الشيخ نيزوس، فحاصر ميغار بضع سنين لم يتمكن خلالها من فتحها؛ لأنها كانت محمية بطلسم هو شعرة

أرجوانية مندسّة بين شعرات مليكها نيزوس، فلا يقوى أحد على فتحها وإزالة ملك ملكها إلا إذا تسنى له الحصول على تلك الشعرة.

وكان للمدينة سور قوي يحيط بها قيل إن أبولون، إله النور والفنون الجميلة والكهانة، وضع في أحد الأيام قيثارته عليه فالتقطت حجارته نغماتها، وكان للملك نيزوس بنت تدعى سيلاً، تأتي كل يوم إلى السور وترشق حجارته بحصى صغيرة، فترنُّ مرددة نغمات قيثارة أبولون. واتفق أن جاءت في أحد الأيام والمعارك واقفة بين مدينتها وجيش مينوس، فأشرفت من أحد الأبراج على السهول المنبسطة حول المدينة، فرأت فارساً ممتطياً فرساً أبيض، ومدرعاً بدرع تبرق في أشعة الشمس، وفي يده مزراق يسطع سنانه كالكوكب الدرّي، فرنت إليه تتبّته، وإذا به ينزع الخوذة عن رأسه ويكشف وجهه فيبين في ثوبه القرمزي فتنة النواظر، ثم همز فرسه فمرَّ به من تحت السور كالبرق الخاطف، فعرفت أنه مينوس، وودت لو تلقي بنفسها من على البرج فتسقط بين يديه، ولعنت الحرب لأنها جعلته عدو أبيها، ثم ما لبثت أن باركت الحرب، فلولاها ما رأت هذا الشاب الجميل ولا عرفته، وشد ما تمت لو تنفتح أمامه الأسوار، فيدخل المدينة وتنتهي الحرب فتبهه نفسها وتصبح أمة له.

ثم خاطبت نفسها قائلة: لماذا أدع دماء أبناء مدينتي تهرق في حرب لا نهاية لها؟ وعلام أترك مدينتي تشقى في حصار لا فرج منه إلا بسقوطها في يد من أحبه قلبي؟ أليس الأجمل بي أن أحقن دماء بني قومي وأبعد الشقاء عنهم؟ لأذهب إلى مينوس وأسلمه نفسي وأسأله أن يكفّ نفسه عن الحرب ويرفع الحصار، ولكن أتى لي الوصول إليه والأبواب مقفلة والعسس لا يأتي طوافاً؟

وقطبت حاجبها تفكر فيما تصنع، وإن هي إلا هنيهة حتى أشرقت أسارير وجهها، واستدارت على نفسها، وعادت إلى قصر أبيها، ولما أرخى الليل ذوائبه ونامت العيون مشت مشية الحية منسلة إلى غرفة والدها، فرأت شعرتة الأرجوانية تسطع نوراً بين شعراته البيضاء فاستلّتها، وخرجت تجر ذيل خيانتها وراءها إلى أن وصلت إلى السور، فانفتحت لها أبوابه، فاجتازتها ومشت إلى مخيم الأعداء حاملة جريمته بيدها، ولما انتهت إلى خيمة مينوس دخلت عليه، فبهت لرؤيته صبية من بنات أعدائه تأتي إليه وحدها تحت غياهب الظلام، وسألها: من أنت؟ قالت: أنا سيلاً بنت الملك نيزوس، جئتك لأسلم إليك آلهة بيتي ولا أطلب مكافأة إلا أن أكون لك أمة. خذ هذه الشعرة الأرجوانية عربوناً لحبي لك، واعلم أنني، في تسليمي إياها إليك، إنما أسلم إليك رأس والدي، ثم بسطت يدها بالشعرة، فترجع

مينوس مذعورًا من خيانتها ووقاحتها، وأجابها بغضب: لتطردكِ الآلهة من عالمنا، أنت يا عار زماننا، وليحرموك البر والبحر، أما أنا فلا أطيق أن تتدنس إكريت، مهد جوبيتر ومدينتي، بلمس قدمي مسخ مثلك، قال هذا وانتزع الشعرة من يدها، ومضى إلى المدينة فانفتحت وخضع له مليكها وسكانها ففرض عليهم فروضًا عادلة، وقفل راجعًا إلى قومه، فأمرهم بأن يحلُّوا أربطة سفنهم وينشروا أشرعتها ليعودوا إلى بلادهم.

ورأت سيلاً السفن تبتعد، فثار غضبها على مينوس لتركه إياها، وقد سدت خيانتها في وجهها سبل العودة إلى المدينة، فلطمت صدرها وصاحت به: يا قاسي القلب يا صلب الكبد لن تفلت مني، ثم قفزت إلى الماء وسبحت حتى وصلت إلى سفينته فتعلقت بها.

وكان جوبيتر قد رأف بأبيها الشيخ لما لحق به من هوان فحوله إلى نسر بحري أصهب الجناحين، وفيما هو يحوم فوق البحر شاهداها متعلقة بسفينة مينوس فانحط عليها مغيضًا يريد تمزيقها بمنقاره المعقوف، فارتجفت فرقًا لرؤيته واسترخت يداها، فسقطت فسندها نسيم لطيف أرسلته إليها جونون رحمة لها، ومنعها أن تمس الأمواج، وإذا بها ينبت لها ريش وجناحان فتحولت إلى عصفور يسمى قوس السحاب (إيريس) تذكرها ألوانه الجميلة شعرة أبيها الأرجوانية.

عاد مينوس إلى مملكته، وكان نبتون إله البحر قد غضب عليه لإبحاره إلى ميغار دون أن يقرب له قربانًا، فأراد أن ينتقم منه، ولكنه خاف جوبيتر؛ لأن رب أرباب الأولمب لا يأذن بأن يؤذى ابنه، فصوب نبتون انتقامه إلى بازيفابي، وعزم على أن يلبسها، في غياب زوجها، ثوب الخيانة والعار، فبعث إلى إكريت ثورًا أبيض جميلًا، فاندس بين ثيران مينوس يرعى معها في أودية جبل أيدا الظليلة المغطاة بالغابات الخضراء، والموشاة بالخمائل النضرة، وكانت بازيفابي تذهب كل يوم تتنزه في هذه الأودية فتمتع القلب والعين بهوائها النقي المنعش، وبمناظرها الخلابة. وإنما ذات يوم كذلك في لذتها الروحية والبدنية، إذا بها ترى ثورًا أبيض كالثلج، وفي جبهته لخرة سوداء صغيرة زادته جمالًا، فدهشت لرؤيته بين ثيران زوجها ولا عهد لها بمثله، ونهضت جالسة تنظر إليه فألهمها نبتون حبًّا فولعت به واتبعت خطاه.

وكان العجلات كانت شاعرة بجمال هذا الثور، فسرى حبه في قلوبها، وأخذت تتزاحم على الدنو منه لعله يتيسر لها مداعبته، فغارت بازيفابي من العجلات، وليس كالغيرة ما يؤرث لواعج الحب، غارت بازيفابي من العجلات فكانت تنظر إلى كل عجلة فتية جميلة بعين الحقد والبغضاء، وجعلت تتيه وراء حبيبها الثور في الغابات فتعري الأشجار من

أوراقها الطرية والمروج من حشائشها الرخصة لتطعم ثورها الحبيب، تتبعه حيث يسير، ولا يمنعها شيء عن اتباعه. ألهاها الثور عن كل حب غير حبه فنسيت زوجها مينوس، طفقت تتزين بأثمن جواهرها وحلاها وأجمل ثيابها، وتعرض نفسها في زينتها على الثور توهماً منها أنه يشعر بقيمة محاسنها وتبرُّجها. تلتحق به إلى مشارف الجبال حاملة مرآتها بيدها تترأى بها لتلمس وجهها، وترتب ما تشعث من شعرها. تنظر إلى وجهها في مرآتها ولا تشعر أنها إنسانة لا عجلة، وأن الثور لا يميل إلا إلى بنات جنسه، وكم ودت لو أن الطبيعة تنبت لها قرنين لتكون زوجة للثور.

ولم يكن حبها لمينوس ليردها عن هذا الحب الشاذ، فكانت تتقاذفها الغابات مشمّرة وراء الثور كأنها إحدى بنات باخوس تسير مملوءة قلبها بحب هذا الإله. وكم مرة ألفت نظرة الغضبي على عجلة دنت من الثور، صائحة: ماذا يرى فيها مما يعجبه؟ انظروا إليها كيف تقفز إلى جانبه على العشب الأخضر، أتظن أنها، في عملها هذا، تتحبب إليه؟ وتوصلت بها غيرتها من العجلات أن أمرت بإخراجها من القطعان، وبذبحها قرباناً للآلهة، وكانت حينما تذبح العجلة تجس بغبطة أحشائها وتخاطبها بشماتة: اذهبى الآن وزاحميني على حب حبيبي.

وكم اشتهدت أن تتحول إلى عجلة بيضاء كما تحولت إيو من قبلها، أو أن يخطفها هذا الثور على ظهره كما خطف ذاك الثور الأبيض أوروبا أم زوجها، ولكن عبثاً ما اشتهدت، وأخيراً لم ترَ بداً من الخدعة، فتزيت بزي عجلة ودنت من حبيبيها الثور تداعبه فألهمه نبتون مراودتها فحملت منه ثمرة دنسة لم تكد ترى ضوء الشمس حتى فضحت خيانة أمها وعارها. حملت منه وولدت مينوتور مسخاً برأس ثور وجسم إنسان نما نمواً عجلاً. وصل مينوس إلى إكريت، معقودة عليه أكاليل الغار، فضحى لجوبيتر بمائة ثور، وزين قصره بأسلاب أعدائه، وشد ما كان غمّه حينما شاهد مينوتور، ورأى رأسه ينمُّ بخيانة بازيفاي، فجعل كل همه في إبعاده عن قصره وسجنه، حيث لا يمكنه أن يعرض لعيون الناس قبح فعلة أمه.

وكان في إكريت مهندس بارع في فن البناء يقال له ذيذال. فأوعز إليه مينوس أن يبني دهاليز متشابكة يتيه فيها من يدخلها فلا يهتدي إلى الخروج منها، فبنى ذيذال متاته إكريت المشهورة وسجن فيها مينوتور، وكان هذا من أكلة لحوم البشر، فأكره مينوس أهل أثينا أن يرسلوا إليه في كل سنة سبعة شبان وسبع شابات طعاماً لمينوتور.

وكان لإيجه ملك أثينا ولد يدعى تيزه، بطل من الأبطال مضى صباه في ترويض سباع الوحوش واستئصال شأفة قطاع الطرق، فلم يُطق أن تحمل مدينته هذا الذل فطلب من

أبيه أن يكون بين السبعة المعدّين للذهاب إلى إكريت، فأجابه أبوه إلى ما أراد، وسافر من أثينا على سفن سود الأشرعة ووعد أباه أنه إذا عاد متغلبًا على مينوتور يبدل من الأشرعة السود أشرعة بيضاء. ولما بلغت بهم السفن إكريت انطلق تيزه مع رفقائه ليدخل المتائه، وكان متكميًا بسلاحه مدرعًا بأقوى أدراعه، فرأته أريان بنت مينوس فأخذت بملاحته وشجاعته، وخشيت عليه إن هو دخل المتائه، أن يتيه فيها فلا يجد إلى الخروج منها سيلاً، فزنت خصره بخيطها السحري فدخل المتائه ونازل مينوتور فغلبه وقتله وعاد إلى النور مهتدياً بخيط أريان، وكانت هذه بانتظاره فاخطفها وسار بها، ولكنه حينما مرّ بشاطئ ناكسوس، جزيرة الإله باخوس، حملها وهي نائمة ووضعها على رمال الشاطئ وأبحر إلى أثينا تاركًا إيها وحدها. وكان قد سها عن أن يبدل بالأشرعة السود أشرعة بيضاء، فرأى أبوه إيجه السفن تطلع من صدر البحر بأشرعتها السود، فأيقن أن ولده قُتل فألقى نفسه في البحر يأسًا وحزنًا، فمات غرقًا وسُمي ذلك البحر باسمه بحر إيجه، وتملك تيزه مكان أبيه، وتزوج ملكة الأمازونة.

أما أريان فلبثت نائمة على رمال شاطئ ناكسوس، ولما استفاقت من نومها ورأت نفسها وحيدة على ذلك الشاطئ المقفر أخذتها الرعدة وسالت دموعها على خديها، ونادت على الأمواج تسألها عن تيزه الصلب الفؤاد ولكن الأمواج لم تحر جوابًا، تصيح وتبكي في وقت معًا فتذهب الريح بصراخها وبكائها مبددة إياهما في الأجواء، تقول وتخطب ثديها: لك جوبيتر أيها الخائن! كيف تتركني هنا وحدي وما تراه يحلُّ بي؟

وكانت رجلاها عاريتين، ولم يكن عليها إلا غلالة شفافة، وكان هواء البحر يداعب شعرها الأشقر، فيتفرق متموجًا على كتفيها. بردت ولم تستطع أن تمشي بقدميها الطريتين على الرمل والحصى لتبحث عن مكان يقيها برد الهواء، وجاعت؛ لأن تيزه القاسي لم يترك لها طعامًا، فلم تجد قربها إلا ما كانت تأكل منه طيور البحر فأكلت منه. وفيما هي في هذه الحالة إذا بها تسمع ضجيج صنوج وطبول تضرب ضربًا شديدًا، فصعقت خوفًا وسقطت إلى الأرض تتمم كلمات متقطعة لا تفهم، وهرب الدم من وجهها فاصفرت، وشخصت عيناها إلى حيث تطلع الضجة فرأت حوريات الإله باخوس ورفيقاته الخفيفات الناعمات نافشات شعورهن سائرات في مقدمة موكب إله الكرمة، ورأت الشيخ سيلين مدبر الإله راكبًا على حماره، متعلقًا بناصيته لا يكاد يستمسك من سكره. ورأت الإله في قلب الموكب على مركبة مجللة بأوراق الكرمة وعساليجها تقودها النمورة تساس بأرسان من ذهب. وكانت أريان بعد فقدها تيزه قد فقدت لونها وصوتها وقوتها، فحاولت ثلاث مرات

أن تهرب فكان الخوف في كل مرة يقيد رجليها، فاضطربت كالقذاة في مهب الرياح، ووقفت ضائعة الرشد لا تدري ما تصنع، فدنا الإله بمركبته منها ووقف قربها فعرف بها نسيبته أريان، أليست أريان بنت مينوس ابن أوروبا، وهذه أخت قدموس، وقدموس جدُّ باخوس لأمه سميلًا؟ فأريان إذًا ابنة عمّة أمه؛ ولذلك حنا عليها وقال لها: أبعدني الخوف عنك يا بنت مينوس! ستكونين زوجة باخوس أحسنَّ زوج وأخلصه، وإنني مكافئك بتقديمي السماء لك مهرًا، ستكونين نجمة جديدة، ويكون إكليلك الساطع دليلًا للبحارة التائهين. قال هذا وقفز من مركبته، فخشعت الأرض تحت قدميه، وضم أريان إلى صدره وحملها فلم تتمكن منه ولم تتمنع عنه، وهل بإمكان بشرية أن تمتنع عن إله؟ أليس في طاقة الإله أن يفعل ما يشاءه؟ حملها بينما كانت حوريات موكبه ينشدن أناشيد العرس، ورفيقاتهن يصحن: إِيها إِيها! هو ذا الإله وعروسه الشابة يتمنان عقد الزواج، وكانت الأنوار اللازوردية والأضواء الشفقية تلفهما بغلالة شفافة فاتنة للعيون والألباب، ثم خلع الإله عن رأسه تاجه المرصع بالحجارة الكريمة وألبسها إياه، ثم حوّلها إلى نجمة زاهرة وأرسلها إلى السماء، وتحولت حجارة التاج الكريمة إلى نجوم صغيرة تدور متلاثلة حول أريان في شكل تاج من النور البهي يستهديه البحارة الضالون في البحار سبيلهم فيهددهم إليه.

(٤) ديدون الصورية

كانت صور في عهد الفينيقيين عروس البحر الأبيض المتوسط وسيدة التجارة والبحار، وقد وصفها حزقيال النبي في نبوءاته فبيّن ما كانت عليه من العظمة والجمال وسعة الغنى والقوة البحرية وامتداد المتجر، وسماها تاجرة الشعوب في جزائر كثيرة. وكان في ذلك الزمان على هذه المدينة ملك يقال له بيلوس وهو حفيد إيتوبعل ملك صور وكاهن عشتروت الأكبر، وابن أخي إيزابل الشهيرة زوجة آخاب ملك السامرة وناشرة الديانة الفينيقية في إسرائيل. وكان بيلوس ملكًا قويًا غزا قبرس والجزائر اليونانية غزوات مظفرة عاد منها بالأسرى والغنائم.

ولم يكن له إلا ولدان: بغماليون وعليشار. وكانت هذه تهوى خالها سيشاربعل أكبر كهنة ملكرت وأول رجل في المدينة بعد أبيها الملك، وكان هو يهواها لما فيها من جمال وذكاء وجرأة، فطلبها من أبيها زوجة له فزوجه إياها وزفها إليه عذراء وربطها به بعهد الزواج، فولدت له ولدين ذكرين كانا بهجة نفسه.

ولم يلبث الملك بيلوس أن توفي فولّى الشعب مكانه ولده بغماليون على صغر سنه أملاً منه أن يكون كأبيه شجاعاً عادلاً محباً لشعبه ومصالحه، لكن بغماليون لم يحقق أمل الشعب منه، فقد كان ظالماً شريراً رديء النفس مهماً لشئون المملكة، وكان يحسد صهره سيشاربعل على ثروته العظيمة، ويود لو انتزعها منه. يحسده على ثروته، ويغار منه؛ لنفوذه في الصوريين ونفاذ كلمته فيهم، وهذه الخلائق السيئة التي اشتمل بغماليون عليها، جعلت كبار رجال الدولة ينقمون عليه ويكرهونه، ويرغبون في تولية أخته بدلاً منه، فتألبوا حزباً عليه بزعامة الكاهن الأكبر، وجعلوا يتربصون به ليقضوا منه لباتتهم.

وشعر بغماليون بهذا الشر الذي يهدده، فخاف على رأسه وتاجه، وانبرى بما فيه من خبث ولؤم يدسُّ على صهره ومن لفَّ لفه بين طبقة الشعب الجاهلة، يفعل ذلك في الخفاء خشية من أخته التي كانت تتمتع بمنزلة أسمى من منزلته في قلوب الصوريين، حتى تمكن من الفتك بأكثر رجال الحزب، ثم فاجأ صهره في الهيكل، فطعنه بخنجر مرقّ أحشاءه، وأخفى جثته في بعض سرايب المعبد، وذهب إلى أخته يقول لها إنه أرسل زوجها في أمر خطير، وعلّلها بعودته في وقت قريب.

تخلّص بغماليون من مزاحمة صهره، فبقي عليه أن يقبض على كنوزه التي كانت تثير طمعه القاتل، ولكن سيشاربعل كان يخبئها في مكان خفي، حتى إنه لم يطلع عليه عليشار زوجته مع حبه لها وثقته بها.

مرت أيام وليالٍ وعليشار تعلّل نفسها بعودة زوجها، وهي لفراقه على مثل الجمر اللاهب، وكانت جثة سيشاربعل لا تزال مطروحة في سرداب الهيكل غير مواراة في قبر ولا مقامة عليها الطقوس الدينية التي تقام لكل ميت لتستطيع روحه دخول فردوس الآلهة. فلبثت روحه تائهة في ظلمات الجحيم لا ترى مكاناً تستريح فيه.

وذات ليلة بينما كانت عليشار راقدة، بعد هواجس كثيرة ساورتها، رأت طيف زوجها يطلع عليها من بين ضباب كثيف مظلم، وعلى وجهه شحوب راعب، فأراها درجات المذبح المخضبة بدمائه، وأراها أحشاءه التي مرقّها خنجر بغماليون، وكل الفظائع التي ارتكبت في سرّ قصر أخيها، ثم أمرها أن تهرب من صور الجميلة وتترك أرضها إلى الأبد، وأن تبني مدينة على الشاطئ الأفريقي حيث تشير عليها جونون ربة الأوبل بأن تبنيها، وأذن لها بأن تقف حياة ولديها على إتمام هذه الوصية، ثم كشف لها بطن الأرض وأراها المكان الذي دفن فيه كنوزه من ذهب وفضة وياقوت أحمر وزمرد أخضر ودرر ولاكى، وأطلعها على المخبأ الذي خبأ فيه كنوز معبد ملكرت، وأمرها بأن تحمل كل هذه الكنوز معها لتكون عوناً لها على أداء الرسالة التي عهد بها إليها، ثم توارى عنها.

استفاقت عليشار من نومها مذعورة مما رأت وعزمت على أن تنفذ وصية زوجها الرجل الوحيد الذي أحبه ولا تزال تحبه، فتهيأت للفرار، وبعثت إلى أصحاب زوجها فأتوها في خفية، فأخبرتهم بما رأت وما سمعت وما عزمت عليه، فوافقوها على الفرار، والتف حولهم كل الغاضبين على أعمال بغماليون الناقمين على سلوكه الرديء، فانتدبت منهم من سرق جثة زوجها من السرداب ودفنتها خارج مدينة صور لتتمكن روحه من الراحة في جنان الآلهة وهنائها، واستخرجت كنوز زوجها وكنوز المعبد من حيث كانت مدفونة، وأرسلت من يجوس الميناء لترى هل من سفن مهيأة للسفر؟ فأرأوا مراكب موشكة أن تنشر أشرعتها فأمسكوها، وحملت إليها عليشار نفسها وولديها وكنوزها ورجالها، واستغاثت جونون لتعينها وتسهل سفرها وتدلها على المكان الذي تبني فيه مدينتها، ونذرت لها هيكلاً في أول أرض تطؤها قدمها، ثم نادى على أصحابها واستقسمتهم بالآلهة أن يخلصوا لها وللقضية التي انتدبها إليها زوجها، فأقسموا لها يمين الإخلاص، وجعلوها ملكة عليهم يصدرون ويردون عن كل ما تأمرهم به.

سارت سفن عليشار تمخر البحر الأبيض والأمواج تتقاذفها والعواصف تشردها حيناً وتجمعها حيناً، يعلو بها التيار الثائر حتى يخيل لمن فيها أنهم لصقوا بالسحاب، وينحدر بها حتى يظنوا أن اللجة ابتلعهم، بحر تضربه رياح الشتاء الهوجاء، وتهيج أمواجه الزوابع المجنونة، وسفن تتقلب في ظلمات غيوم دامسة تكتنفها من كل جانب، ولولا مهارة نوتية صور في تسيير السفن ومقدرتهم في خوض البحار مهما ثار تيارها وعربدت أمواجهها، لكان الفينيقيون الهاربون قد هلكوا في الهالكين، وما زال هذا دأبهم حتى ألفت بهم يد الأقدار على الشاطئ الأفريقي، فتنفسوا الصعداء وسرّو عنهم، وشكروا الآلهة على نجاتهم، ثم انحدروا من سفنهم إلى غابة قرب الشاطئ خضراء ظلييلة، فلجأت إليها عليشار بولديها وكنوزها فسمأها أصحابها منذ ذلك اليوم ديدون أي اللاجئة.

وكان أول ما صنعه ديدون أن قدمت قرابين لآلهة تلك الأرض تقرباً إليها، ثم أضجعت منهوكة القوى، فزارتها جونون في اللحم وقالت لها: انهضي تجدي رأس جواد فتّي، فتبنين مدينتك حيث تجدينه. وهذا الرأس هو رمز إلى الأمة التي سوف تنشئنيها، ودليل على أن أمتك ستكون ظافرة في حروبها، وسوف تسود أمماً كثيرة، فانتبعت ديدون ونهضت من مرقدها، ولم تسر إلا قليلاً حتى رأت العلامة التي وصفتها لها الإلهة جونون، فقبلت التراب شكراً لها، ثم أهابت بأصحابها إلى بناء هيكل تُمجد فيه هذه الإلهة المحسنة فلبوها، فبنت ديدون هيكلًا كبيرًا زانته بأنواع الذهب والجوهر والفضة، وجعلت في أساسه

رأس الجواد الفتى، العلامة التي أعطتها إياها جونون، وأقامت له مصعدًا ذا درجات في أعلاها رتاج مزدان بالشَّبه، مصراعاه مصنوعان من جسور من الخشب مربوط بعضها إلى بعض برُّبُط من الشَّبه، يدوران صافرين على ررَّات من المعدن نفسه.

وبعد أن انتهت من بناء معبد جونون أخذت تفكر بتحقيق حلم زوجها وبناء مدينة تكون مجمعًا قومياً للفينيقيين الهاربين وأنسالهم، ولكنها خافت الاجترار على أراضي الدولة البربرية المسيطرة في تلك البقاع، ولم تشأ أن تنزل في العاصمة الفينيقية القديمة أوتيكا حذرًا من أن تخالف وصية زوجها في بناء مدينة جديدة.

وكان ملك القبائل البربرية المقيمة هناك يقال له يرباس، وهو ينزل في عاصمته جيتول، التي لا تبعد كثيرًا عن الغابة التي لجأ إليها الفينيقيون، فأرسلت إليه ديدون رسلاً يسألونه أن يأذن لها ببناء مدينة في أرضه، وأن يطلب ما يريده من مال وجواهر ثمناً للأرض التي يعطيها إياها، فردَّ يرباس رسلها خائبين، ورفض أن يبيعهم أو أن يهبهم شبرًا من أرضه؛ لأن ديانتهم تقضي بأن تكون الأرض التي يتكون ترابها من رفات الآباء والأجداد ومن بقاياهم ملكًا للإله ملكرت، إله الغابات، فلا يجوز بيعها، ولا تصح هبة شيء منها.

لكن رفض الملك يرباس بيع ديدون أرضًا لم يئنها عن عزمها ولم يورسها، فأقامت مذبحًا لبعل، إله الشمس، ولما كان هذا الإله جشعًا يحب الضحايا البشرية لم تشأ ديدون أن تضحي له بأحد أصحابها، فضحت بأحد ولديها؛ لأن زوجها كان قد أوصاها بأن تقف حياتهما على تحقيق ما تمناه، وهو في قيد الحياة، فأبلغها هاتف بعل أن الإله يأمرها بأن تذهب بنفسها إلى يرباس وتفتنه بجمالها ومحاسنها، فبييعها أرضًا تبني فيها حصنًا على التلال القريبة من البحر حيث وجدت إشارة جونون، فيكون هذا الحصن نواة لمدينة جديدة تزاحم أوتيكا، وتنتزع منها السيادة التجارية والحربية.

ولما سمعت ديدون ما قاله هاتف الإله بعل عقدت نيتها على تلبية أمر الإله والذهاب إلى يرباس وإيقاعه في حبال هواها، وكانت ديدون مثال الجمال النسائي اللبناني القديم: بيضاء مشربة سمرة ذهبية، عيناها كحلوان فاترتان، وثغرها نقيٌّ كحب الغمام، وشعرها كستنائي مسترسل على كتفيها طويل حتى لتكاد أطرافه تلامس كعبيها، ممشوقة القوام، مجدولة الجسم، صافية البشرة، ناعمة الملمس، فتزينت بأبهى زينتها، ونثرت عليها أبداع جواهرها، وتحلت بأجمل حلاها، وتعطرت بأطيب عطورها، ثم انطلقت إلى يرباس فتنة من أروع الفتن.

لم تدخل ديدون على يرباس حتى أخذته سورة سحرها، فجن بها وتاه عقله، وأراد أن يجيب سؤالها ويهبها الأرض التي تختارها فاعترضه خصمه «ندب» زعيم القبائل ونبهه إلى أحكام ديانتهم، واستعان عليه بملكون كبير سحرة البربر حتى تم الرأي على أن يستوحوا ملكرت، ويعملوا بما يوحي به إليهم، فإن له وحده حق التصرف بأرضه، فمشوا إلى الغابات يحملون البخور والخمر والأزهار والسنابل في موكب حافل يملأ عجيجه الآفاق، حتى وصلوا فقدموا التقدام، وقربوا القرابين بعد أن نضحوا الأرض بالخمير وأحرقوا البخور، وهم يتضرعون إلى ملكرت، ويسألونه أن يوحي إليهم: أبيعون ديدون أرضاً أم يمتنعون؟ وإذا بالساحر ملكون يكلمهم بلسان الإله قائلاً: إن ملكرت يقول لهم ألا يبيعوا شيئاً من أرضه. فعاتت ديدون إلى أصحابها وهي أقوى عزيمة مما كانت عليه ساعة ذهابها إلى يرباس، وجعلت تفكر فيما تعمل، فهتفت بها هاتفة أن الجئي إلى الإلهة تانيت إلهة القمر فهي توحى إليك بما تعملين، فأقامت ديدون مذبحاً للإلهة تانيت، ونضحت عليه الخمر، وأحرقت البخور، وقربت القرابين عجلاً أبقاراً، فأوحت إليها تانيت أن ترشو الساحر ملكون بالمال، وتتحبب إلى يرباس، وتعدّه بالزواج وتطلب منه أن يبيعها من الأرض مقاس جلد ثور، ثم علمتها الإلهة كيف تقيس به الأرض التي تبغي شراءها، فأسرعت ديدون إلى ملكون حاملة إليه أموالاً كثيرة وجواهر ثمينة، فملكته بها وجعلته طوع يدها، ثم ذهبت إلى يرباس تتننى دلالاً وترفل سحرًا.

(٥) سميراميس البابلية

يتدفق من أعالي جبال أرمينية نهران كبيران: دجلة والفرات. وبعد أن يسير كل منهما، على مسافة، في وجهة غير وجهة الآخر، يتدانيان ويجريان متوازيين نحو الجنوب، ثم تختلط مياههما في مجرى واحد يسمى شط العرب، ويصبان منه في خليج فارس، والوادي الذي ينبسط بين هذين النهرين، بعد تركهما منطقة الجبال، يسمى ما بين النهرين، نشأت فيه مملكتان عظيمتان: آشور وكلد، ازدهرتا زمنًا، أقدمهما بل أقدم مدنية في آسيا هي مدنية كلدة.

وكان الآشوريون ينزلون من هذا الوادي في شماله على الضفة دجلة الشرقية وعاصمتهم نينوى، وينزل الكلدانيون قداماء البابليين في جنوبه وعاصمتهم بابل قائمة على ضفتي الفرات يشطرها هذا النهر شطرين، ولم يكن بد من خضوع إحدى هاتين المملكتين للأخرى، فكانتا تتداولان السيادة، فتسيطر حيناً نينوى على بابل وحيناً بابل على نينوى.

وكان نهر الفرات يهدد المنطقة الجنوبية من الوادي بفيضانه المتوالي في كل سنة، فأنشأ أهلها قنوات وخذائق يحولون إليها ما يفيض من الماء عن مجرى النهر تحامياً للطوفان ورئياً لأراضيهم.

واتفق في إحدى السنين أن نزلت أمطار غزيرة في زمن ذوبان الثلوج على جبال أرمينية، ففاض الفرات وتدفقت مياهه فخرجت الأسماك منه إلى الأرض اليابسة، وكان بينها سمكتان كبيرتان رأتا بيضة كبيرة على وجه الغمر فسبحتا إليها ودفعتها أمامهما إلى الضفة، وإذا بحمامة بيضاء تهبط من السماء وتحضن البيضة إلى أن تراجع ماء الفرات إلى مجراه، فنققت البيضة وخرجت منها الإلهة ديركيتو بوجه امرأة وجسم سمكة، إلهة السريان التي اشتهرت بعدلها وفضلها وحكمتها، حتى أن جوبيتر أعجب بها فوعدها بأن يمنحها كل ما تطلبه منه، فسألته أن يخلد السمكتين اللتين أنقذتاها من الطوفان فجعلهما في برج الحوت نجمتين وضّاءتين، وهذا ما جعل السريان عبّاد ديركيتو يحترمون الحمام ولا يأكلون السمك.

وحبلت ديركيتو، والإلهات يحبلن ساعة يشأن بزواج وغير زواج، ولما تمت أشهرها وضعت إنسية ينبعث النور من بدنها لجمالها الباهر، فبهتت ديركيتو أمامها، وذعرت لأنها ولدت ولدًا ليس في شكلها، وخافت أن تعيّرها بنات جنسها ويتهمنها بما هي منه براء. فحملتها في ليلة مظلمة إلى البادية وتركتها هناك على الأرض في قفر بلقع تسوطة الرياح من جهاته الأربع يقرس فيه البرد ليلاً ويستحرّ الحرُّ نهارًا، فلبثت تلك الطفلة المسكينة عارية مهملة بين أيدي العناصر الطبيعية.

ولكن بيلوس إله نينوى الأعظم كان يعلم، من قبل، موعد مجيء هذه الطفلة إلى العالم الأرضي، ويعرف ما سوف يكون لها من شأن. وربما كانت بنته تزوج أمها ولم يعلم بذلك أحد، وعلمه بها جعله يرسل الإله ينبو رسوله رقيبًا على ديركيتو حتى إذا ولدت طفلتها وألقفتها في البادية أرسل إليها ينبو سربًا من الحمام هداهن بيكائها إلى مكانها، فطفق بعضهم يرفُّ عليها بأجنحته ليردَّ عنها الحرَّ نهارًا ويدفئها ليلاً، وكانت الحمام الأخرى ينطلقن إلى حيث ينزل رعيان البدو، فيحملن إليها بمناقيرهن نقطًا من الحليب يزققنها بها ليغذيها، وحينما بلغت السن التي تحتاج فيها إلى غذاء أقوى أخذت الحمام يردن الأمكنة التي يضع فيها الرعيان ما يصنعونه من الجبن، فيأخذن منه مقدار ما يسع منقار كل منهن، وكان الرعيان إذا عادوا مساء يرون جبنهم منقورًا فدهشوا، وتركوا منهم في الغد من يرقبه في غيابهم، فرأى الرقيب الحمام وما يفعلنه فأخبر رفاقه، فاتبعوا الحمام

حتى وصلوا إلى حيث الصبية، فأوها رائعة الجمال، فحملوها معهم إلى خيامهم، وقرَّ رأيهم على بيعها في نينوى.

وكان للأشوريين موسم يقيمونه في كل سنة لتزويج بناتهم، موسم يتقاطر فيه الشبان والشابات من كل نواحي المملكة، ومن جميع طبقات الشعب إلى العاصمة الآشورية، فتعرض هناك الشابات في ساحة واسعة، ويجتمع الشبان لينتقي كل منهم زوجة، أو ينتقي صبية يحملها إلى داره فيريبيها إلى أن تبلغ سن الزواج فيتزوجها.

وكان الشبان الأغنياء يتقدمون أولاً، ويتزايدون في أثمان الحسان، فتكون الحسنة عرساً لمن ترسو عليه الزيادة الأخيرة، ولا تدفع أثمان الجميلات إليهن ولا إلى أهلهن، وإنما تعطى بائئات للشابات القبيحات فيحملنهن إلى متوسطي الحال والفقراء، فهؤلاء لم يكن يهمهم الجمال، وإنما كان يهمهم ما تحمله الزوجة من المال، ولا تسلم بنت إلى شاب إلا على ضمان تزوجه بها.

حمل الرعاة الصبية الحسنة إلى نينوى، وكانوا قد سموها سميراميس أي حمامة لرؤيتهم الحمام يغذيها. ووافق وصولهم إلى المدينة يوم موسم الزواج وقد غصت ساحة عرض الحسان بالشيوخ والكهول والشبان، كل يطلب حسنة جميلة تملأ بيته حباً وحياء، فشاء الرعاة أن يخترقوا الجماهير ليُدخلوا سميراميس إلى الساحة فلم يستطيعوا. وفيما كانوا يحاولون ذلك شاهدتهم «سيما» ناظر مرابط خيول الملك، وشاهد الصبية الصبيحة الوجه المتلألئة الجمال. وكان سيما عقيماً لا أولاد له فهفا قلبه إلى سميراميس، وشاء أن يتبناها، فدعا إليه الرعاة وساومهم على ثمنها، وحملها إلى منزله وسلمها إلى زوجته، فكانت هذه تحبها وتعتني بها كأنها بنت أحشائها حتى ترعرعت وتفتقت أزهار محاسنها، وبرزت معاني جمالها.

وفي أحد الأيام جاء منيوتس كبير قواد الملك نينوس، ملك نينوى، إلى مرابط الخيول ليتفقد خيول الملك، فشاهد سميراميس قاعدة قربها، فوقف ينظر إليها معجباً ببهائها والنور المنبعث من وجهها، فرنت إليه سميراميس بمقلتين فاترتي النظر يتقرق السحر فيهما، فاستطير عقله ولم يتمالك أن دعا إليه سيما وسأله عنها، فأخبره سيما خبرها، فطلبها القائد زوجة له وأعلى مهرها. ثم حملها إلى قصره وسلّمها إلى المزيّنات والمواشط ليتواصين بها، وأخرج لها من خزائنه من حلي وجواهر ما لا يوجد مثله إلا في كنوز الملوك. فأخذتها النساء إلى الحمام وغسلن بدنهن بالماء المعطر ومشطن شعرهن الأسود الطويل، وسدلنه على كتفيها خصلًا معقدة بالجواهر، ثم ألبسها الأرجوان الفينيقى الموشى بالذهب والمحلّى بالجواهر، وأخرجنها للقائد عروس الجمال والفتون والأناقة.

وكان منيوتس قد أمر بتهيئة أداة العرس فتزوجها، وجعل لها المقام الأسمى بين نسائه وحظيَّاته، وكان يلازمها ملازمة ظلها لها ولا يطيق البعاد عنها، فكانت تزيد فتونه بها بدَّلها الحَفْر وتسبيه بذكائها وعذوبة منطقتها.

ذهب القائد ذات يوم مع الملك إلى حرب رجع منها الملك مظفراً، فخرج أهل المدينة للقائه، وبرزت النساء يعزفن بالمعازف ويزغردن فرحاً، وحملت سميراميس نفسها على محفة يرفعها أربعة من العبيد السود وتسايرها فيها وصيفتان صبيحتا الوجه ناعمتا البَشَر، هذه راکعة وراءها تروِّح لها لترد عنها لذعات الشمس، وتلك ساجدة أمامها تلبي رغباتها.

وكان الملك على مركبته الذهبية تجرها جياذ الخيل، يخفق فوق رأسه العلم الآشوري، ويسير إلى جانبه على فرس القائد منيوتس، وتحيط بهما كوكبة من القوَاد، فحانت من الملك التفاتة فوقعت عينه على سميراميس في محفتها، وكانت في اتكائها على المساند الحريرية، والتفاتتها، وزينتها، وتألقت طلعتها، أغرى ما تكون امرأة وأسلبها للعقول، فعلقت عينا الملك عليها، وأحست به فرنت إليه في دلال وفتور، فأصاب مقلتها مكان الشغاف من قلبه، فالتفت إلى القائد منيوتس وسأله: من تكون هذه المرأة؟ فشعر منيوتس بدنو الكارثة، وأدرك أن سميراميس حلت في عيني الملك، فصمت على ألم متظاهراً بأنه لم يسمع، فكرر الملك السؤال فلم ير القائد مناصاً من الجواب؛ لأن الملك متى أراد شيئاً لا يمكن أحداً مخالفته، والويل لمن يخالفه، فأجاب: هذه زوجتي يا مولاي.

دخل الملك قصره وتفرَّق الجند والناس، فأرسل إلى منيوتس يقول له: إن سميراميس حلت في عيني الملك فهو يريد أن يراها في قصره بين محظياته، فصعق القائد ولبث حائراً لا يدري ما يفعل، ورأت سميراميس حاله فأشارت عليه أن يلبي رغبة الملك وهي تسعى في البلاط بما أوتيت من فطنة ودهاء لعلها تقنع الملك بإرجاعها إليه، فنزل القائد عند إشارتها حزيناً يائساً، ولما أبصرها خارجة من القصر في محفتها تشع كالكوكب اسودَّت الدنيا في عينيه وضاع عقله، فاستل سيفه واتكأ بصدرة على رأسه فخرج من ظهره، وسقط يتشحط بدمائه.

وما تراه يهْمُ سميراميس إذا قيل لها إن زوجها انتحر يائساً؟ فهي لم تكن تحبه ولا تحب أحداً سواه، وإنما كانت امرأة شهوانية نهما للملذات والسيطرة، فسارت إلى بلاط الملك، ونزلت في مقصورة فخمة أعدت لها، وجعلها الملك أولى حظاياه. ولم يطل الزمان حتى صارت بحذقها، وبضروب إغرائها، نافذة الأمر عنده، حتى إنه لولوعه بها كان يحملها معه في حروبه، وقد مكنته مرة بحسن إرشادها وشجاعتها من الاستيلاء على مدينة كان

يحصرها، فعظمت في عينيه وتزوجها فكانت أعزَّ نساءه على قلبه. وولدت سميراميس للملك ولداً سمَّاه نينياس، نشأ نشأةً حربيةً شأن أبناء الآشوريين كلهم.

وكانت الثورات في البلدان التي تحت السيطرة الآشورية متوالية؛ لأن الشعب الآشوري كان شعباً خشناً يعبد القوة ويحتقر الضعف ويقسو على المغلوب، وكان نيره أثقل نير وأضيقه؛ لأن حكومته كانت عسكرية لا تحسن إدارة البلدان التي تخضعها بغير التنكيل والإرهاب. فكانت سميراميس ترافق زوجها الملك لقمع الثورات والفتن، ولم تكن لتتنازل عن أناعتها، وكيف يمكنها الذهاب إلى الحرب في ثيابها الفضفاضة؟ فابتدعت ثوباً أنيقاً يمكنها معه أن تقضي سائر حاجات الحياة، وأن تركب الخيول وتحارب دون أقل ارتباك، فانتشر زي هذا الثوب بين نساء سائر الشعوب التي خضعت لسلطان سميراميس.

وصحبت سميراميس مرة الملك نينوس إلى بلاد الطورانيين الثائرين عليه، وبعد أن ظفروا بهم وفتحوا مدينتهم انتقم نينوس منهم انتقاماً وحشياً، فسلخ جلود كثيرين منهم وهم أحياء، وعلق جلودهم على جدران بناها أمام أبواب المدينة، ثم قطع رءوسهم ونظمها في حبل على شكل عقد، وحكم على من أبقاه حياً من الرجال أن يأكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم، ومن أبى قطع أنفه وأذنيه وشفتيه، ثم انتزع آلهة المدينة وكنوزها وعاد إلى عاصمته.

رأت سميراميس هذه الفظائع فلم تقبلها نفسها وكرهت زوجها، وسميراميس لم تكن آشورية الأصل لتكون فيها الروح الآشورية الفظة، وإنما هي بنت إلهة فاضلة عادلة حكيمة، وقد ربَّتها الحمائم الوديعة، وكانت منذ زمن تصبو إلى السيطرة وحدها؛ لأن نفسها كانت تأبى أن تكون الثانية في المملكة، وأن تظل مغلولة اليدين أمرها مردود إلى أمر زوجها، فعزمت على أن تتخلص منه ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء.

وكان نينوس لشغفه بها ورؤيته ما هي عليه من شجاعة وذكاء قد أشركها في إدارة بعض شئون المملكة، وذات مساء بينما كان جالساً في مقصورتها يتحجب إليها وتملكه بدلالها وشتى حيلها، شعرت بأنها قد استعبده، فطلبت منه أن يسلمها سلطته كلها دقيقة واحدة، فأجاب طلبتها وعهد إليها بالسلطة المطلقة، فما كان منها إلا أن أمرت بالقبض عليه وقتلته وملكت مكانه، ولما علم الشعب بما فعلته هاج وتألب، جماهير تزاخفت إلى القصر تريد الفتك بها والثأر بالملك، وجاء سميراميس النبأ وهي تستحم فلم تذعر ولم ترتعد، وإنما خرجت من حمامها نصف عارية، وشعرها منقوش، وغداورها تنوس على كتفيها، وأطلت من شرفة القصر، فلما رأوها شدهوا فصمت ضجيجهم وسجدوا لجمالها سجدة رجل واحد، ثم تفرقوا وهي عندهم في مقام إلهة.

وانصرفت سميراميس بعد أن توطد ملكها على عبادة الشعب لها إلى الشئون العمرانية، فبنت على ضفتي الفرات مدينة بابل أجمل مدينة في الشرق، بل في العالم كله وأشهرها، وسوّرتها بسور عريض تسير مركبتان معاً على سطح جداره، وشيّدت صرحاً لها زينتته بأجمل ما وصل إليه الفن الشرقي من النقوش والتخريم والترصيع، وأنشأت الحدائق المعلقة التي عدّت بين عجائب الدنيا السبع، وهي كناية عن جنائن جعلتها على أبراج مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً، ورفعت إليها ماء الفرات بأنابيب تدفعه فيها مدافع آية في الصنعة والإحكام، وجعلت مدينتها مركز تجارة آسيا تلتقي فيها الطرق التي تنبعث إلى بلاد العرب ومصر والهند وأرمينية وآسيا الوسطى، وأنشأت مناسج اشتهرت بنسيجها البابلي في ألوانه الزاهية، على تطريز صور، ورسوم أزهار ونجوم وحيوانات خرافية، وبنت للإله بيلوس هيكلًا ضخماً فيه ثلاثة تماثيل من ذهب، وأقامت في فنائه برجاً عاليًا يناطح السحاب، ومدت جسراً على الفرات يصل شطري المدينة أحدهما بالآخر، وانتزعت من مياهه ترعاً وجداول جرّت منها المياه إلى الأبنية والجنائن والبساتين، وشقت بحيرة تتسرب إليها مياه النهر الطاغية، فلا تتدافع إلى المدينة، وتوقع فيها الخراب.

بعد أن أتمت سميراميس أعمالها ومنشأتها العمرانية تحولت إلى الفتوح، فدوّخت البلدان التي جاهرتها بالعصيان، وزحفت في جيش ضخم فأخضعت آسيا وميديا وفارس وأرمينية وفينيقية ومصر وليبية، ثم سارت إلى الهند لمحاربة ملكها منيلة وفتح ورشاقة الجسم ولطف الشمائل، محاسن لم تخلعها الآلهة قبلها إلا على سميراميس، ولم تخلعها على بنت سواها بعدها، وكان مما لا معدى عنه أن يلتقي الولدان كل يوم في الفناء المنبسط أمام داريهما، فيتعارفا ويتوادّا ويلعبا بالألعاب الصبانية البريئة، ولم يكن أهلها ليروا أمراً غريباً في اجتماعهما ولعبهما معاً فقيماً ما كان الصبيان والصبيات يجتمعون ويلعبون، ولا يخشى أهلهم محذوراً بينهم.

مرت الشهور والسنون، فشب بيرام ونهدت تسبا، وتحول ذاك الود الصباني من نفسه إلى حب فتوي توّرت لواعجه عاطفة الفتوة المحتدمة، وببلوره خيال الشباب اللازوردي الذي لا يقيد عقله، ولا يصقله منطق، وكان هذا الحب يتمكّن من يوم إلى يوم حتى ملك على الفتيتين قواهما وحواسّهما، فكان الواحد منهما لا يقوى على فراق صاحبه هنيهة، وإذا جنّهما الليل انصرفا على عناق طويل وقبلة حنون، وانطلق كلٌّ إلى سريره وطيف حبيبه يرف عليه بأجنحة الأمانى الوردية.

وبقيا على هذه الحال زمناً غير يسير، لا يشعر بهما أحد ولا يدري بهما أهلها، غير أن النميمة إلهة خبيثة، همّها تهديم الآمال وزرع بذور الآلام، مسخ مخيف يبتدئ صغيراً

هزياً يرتجف خوفاً على حياته، ولكنه لا يكاد ينطلق حتى ينمو ويقوى، يسير خفيف الرجل سريع الجناح باناً عيونه وألسنته وأذانه الكثيرة في كل مكان، فيتنصت على الأبواب، ويختبئ في الكوى والمنعطفات، لا تنام عيونه ولا تصمت أفواهه، لا في ضياء النهار، ولا في ظلام الليل، حتى تقع عينه على مشهد أو تسمع أذنه خبراً فيسير به مكبراً له ناشراً إياه في كل مكان، هذه الإلهة الخبيثة كانت سبب مأساة بيرام وتسبا، فقد تمثلت في فتاة تدعى أورانيا تصاقب دارها الفناء الذي يجتمع فيه العاشقان معتقدين أن لا رقيب عليهما فيه، فيتبادلان نجاوى الهوى ويبتردان بحرَّ القبل، وكانت أورانيا تشاهدهما كل يوم فأكلت قلبها الغيرة، وكيف يكون لتسبا حبيب جميل كبيرام وهي لا تعلوها في ذروة الجمال؟ فطفقت كلما جلست إلى صديقة لها من بنات الحي تخبرها بعشق بيرام وتسبا، وتعظم لها الأمر، فتنتقل تلك الخبر إلى غيرها مكبراً، وهذه إلى أخرى حتى وصل إلى والدَي تسبا وبيرام فجن جنونهما؛ لأن ولديهما دنسا الأخلاق البابلية، وداسا تقاليد الشعب البابلي التي لا تأذن لشاب أن يجتمع بفتاة إلا بعد أخذها من سوق الزواج، فأسرع الوالدان إلى حيث قيل لهما إن العاشقين يجتمعان، فأدركاهما يتعانقان عناق فراق على أمل من لقاء. أدركاهما يتبادلان قبلة الحب البريء، فتأثماً وخافا الفضيحة والعار، خافا أن يلعنهما البابليون وتغضب عليهم الآلهة، فالتقاليد عندهم شرائع إلهية، والموت جزاء من يستهين الشرائع الإلهية، فأمسك تسبا والدها من شعرها وجرها إلى داره وهو يلعنها، ودفع بيرام والده أمامه وهو يشتمه، وحرماً على العاشقين أن يجتمعا أو أن يكلم أحدهما الآخر، منعهما اللقاء والتشاكى، ولكنهما لم يستطيعا أن يمنعهما التناجي والكلام بالإشارات من بعد. أرادا أن يخمدنا نار ذلك الحب فزادها اشتعالا، فكان العاشقان كلما ضيق عليهما وأرغما على قمع حبهما وكنتم لوعتهما اضطرمت لواعجهما وتأجج لهيب غرامهما.

وكان في الجدار الذي يفصل غرفتي بيرام وتسبا، شق قديم، منذ بُني الجدار، لم ينتبه إليه أحد، ولا يعرفه أحد، فلم تشأ إلهة الحب، وهي إلهة ترأف بعبادها وتسهل لهم سبل الوصال، لم تشأ هذه الإلهة الحنون أن يظل العاشقان معذبين ليس لهما إلا التخيل والنجوى، فهدتهما إلى هذا الشق، فكانا يجلسان إليه، كل في غرفته، ويتشاكيان آلام قلوبهما ويغمغان آيات هواهما، يقعد إلى الجدار كلُّ من جهته، ويتلقى، ملء روجه، أنفاس حبيبه الطيبة على قلبه، ويخاطب الجدار قائلاً له: ما أقسى فؤادك يا جدار! وما أصلب كبدك! أليذك أن تلبث حاجزاً بيننا؟ وما يضرك لو تركت جسمينا يجتمعان؟ فإن تكن ترى اجتماعنا كثيراً علينا فاسمح ولا تبخل، بأن نتبادل القبل، ولكن مهما تكن قسوتك علينا،

ومهما سددت أذنك عن شكوانا، فإننا لا ننكر جميلك علينا، فلولاك لم يستطع كلام أحدنا أن يصل إلى أذني صاحبه.

وهكذا كانا يظلان على شكوى وتهامس حتى يدجو الليل ويحين وقت الرقاد، فيودع الحبيب حبيبه بأعذب الألفاظ وأرقها ويقبلان شق الجدار وينصرفان، ولا يكاد الفجر ينبثق ويترد ضياؤه نجوم الليل، وترتشف أشعة الشمس قطر الندى عن ثغور الأزهار، حتى يعودا إلى موعدهما.

غير أن هذه الشكاوى المهموسة، والزفرات المصعدة خفية في أذن الجدار الصماء، لم تكن لتشفى ما بالعاشقين من آلام، ولا لتخفف من لاعج غرامهما، فاتفقا ذات يوم، وقد أخذ اليأس منهما كل مأخذ، على أن يغافلا أهلها ليلاً، ويخدعا حراس السور، ويجتازا أبواب المدينة ويفرا إلى ظاهرهما، وتواعدا على اللقاء عند قبر نينوس الملك، لئلا يتيها فيضيع كل منهما حبيبه.

وكان يظلل قبر نينوس زوج سميراميس شجرة توت كبيرة، ثمرها أبيض كفلذ الثلج، تنهض على حافة عين باردة الماء، فاتعدا على اللقاء تحتها يستظلان بظلالها عن عيون الليل.

اتفقا على هذه الخطة الجريئة، وافترقا عن قبلة اللقاء لا عن قبلة الوداع، وأي لقاء مفجع سيكون لقاؤهما؟! ولما سكت الليل وغفلت العيون نهضت تسبا من سريرها وقنعت رأسها ووجهها بمنديل حريري من نسج بابل، ومشت في خفة تتلمس الجدران لتستهدي، تطأ الأرض بحذر خشية أن تقرر قدمها شيئاً ينبه صوته والديها، فيشعرا بهمس خطواتها، حتى خرجت من الدار، فتنفست طمأنينة، سارت إزاء السور إلى أن بلغت الأبواب، وكانت إلهة الحب قد بعثت إيريس رسولة الإلهات، فهبطت بين الحراس وشغلتهم بغنجها ودلالها، فنسوا الأبواب مفتوحة فانسلت منها تسبا انسلال النور من خصائص النوافذ، ومضت تتعثر بين غدائر الظلام المنسدلة، يجب قلبها كلما أحست نامة، أو أنست حساً فتردد، فيغوثها الحب، ويمسها بصولجانه السحري، فيلهمها الشجاعة فتمضي في سيرها، ولم تصل إلى قبر نينوس حتى أطل عليها القمر من صدر البرية، فلجأت إلى ظل التوتة المخيمة عليه، وملأت كفيها من زلال العين، فغسلت وجهها وشربت ثم اتكأت على صفايح القبر تنتظر بيرام.

وبينما كانت العذراء البابلية في انتظار حبيبها إذا بها تسمع زئيراً دوت منه البادية ورددت صداه الآفاق، فرعبت وأخذتها الرعدة، وقفزت تسير على غير هدى، فانتهت غابة

قريبة واستترت مذعورة بين أدغالها، وكانت في نفرتها قد أسقطت مندليها الحريري عن كتفها، فلم تجرؤ على العودة لأخذه فتركته حيث سقط.

وكان هذا الزئير صوت لبؤة افترست ثورًا، فأخذها العطش فجاءت إلى العين التي تعودت الشرب منها، فولغت في مائها حتى ارتوت، ثم ولّت قافلة إلى الغابات، فعثرت في مرّتها بالمنديل فخيّل إليها أنه عدو عنيد فهزّت غضبًا، ومزقته بأنيابها وبرائثها ولطخت قطعه بدم الثور الذي كان يلوثها.

لم تتوارَ اللبؤة في الغابات حتى وصل بيرام موافياً عذراءه إلى الموعد، وكانت تسبا ما برحت مختبئة في الأدغال ترتجف خوفًا من أن ترتدّ اللبؤة وتكشف مكانها، فرأى بيرام في ضوء القمر آثار وحش مرتسمة على التراب المندي، فارتعش واصفرّ وجهه وخفق قلبه خشية على تسبا من أن تكون الوحوش قد فاجأتها وفتكت بها، ولم يسر إلا خطوات حتى شاهد المنديل الممزق المخضب بالدم، وكان يعرف أنه منديل تسبا، وهل يخفى على المحب شيء من ثياب حبيبه؟ فصك جبهته، وضرب صدره وصاح صيحة اللائح: يا ليل تبا لك يا ليل وتعبسا! شهدت مصرع تسبا، وستشهد مصرع محبّها التاعس، إن تسبا كانت أحق مني بطول الحياة، ولكن ربة القدر ربة عمياء تضرب ضربتها على غير هدى، ولا ترى من سرعت، قتلت تسبا في ريق صباها، وإبان تفتق أزرار بهاها ... لا يا تسبا لم تقتلك ربة القدر، وإنما أنا الذي قتلتك ... ألسْتُ الذي حملك حبه الملحّ النهم على أن تغادري أمن بيتك إلى حيث تتساور المفازع والأهوال؟ ولماذا لم أت قبلك؟ إذاً لكنت دونك فريسة ذاك الوحش الظلوم، أيتها الأسود الضارية لماذا لا تنقضين عليّ؟ تعالي ومزقي جسمي مرقًا مرقًا، عاقبيني على جريمتي بتقطيعك أحشائي بأنيابك المسنونة، أيتها الوحوش الخادرة في هذه الغابات الغيباء هلمي إليّ وافترسيني، فقد حقّ عليّ الموت نهشًا وتمزيقًا، غير أنني لن أنتظر مجيئك إليّ لتذيقيني كأس المنون جرعات مرّة، فالجبان وحده يدعو الموت وينتظر مأتاه، وأنا لست جبانًا.

ثم تناول منديل تسبا، وحمله إلى ظل الشجرة يقبله باكياً حتى بلله بدموعه، هناك انتضى خنجره من قرابه العاجي، وخاطب المنديل قائلاً: تقبّل يا منديل الحبيب دمي الذي تسفكه يدي حسرة على صاحبك. وطعن صدره بالخنجر، ثم انتزعه من الجرح ورمى به جانبًا، فنفر دمه سخيناً واندفق على أصول التوتة فنهلته، فتلونت أثمارها البيضاء بلون قرمزي، واستلقى بيرام قرب جذعها يضم المنديل إلى صدره الدامي ويعالج سكرات الموت. وكانت تسبا قد أمنت عودة اللبؤة، فخرجت من مخبأها، وأسرعت الخطى خائفة أن يكون بيرام قد أتى ولم يرها، فهو ينتظرها وهي لا تريد أن تتأخر عليه، فجعلت تبحث

عنه بقلبها وعينيها، تشتاق أن تراه لتخبره بالخطر الذي واثبها، فانتهدت إلى العين فعرقت المكان، ولكنها أنكرت لون أثمار التوتة، تركتها بيضاء فإذا بها تجدها حمراء كالدم، فبهتت وسألت نفسها: أتراها إياها؟ وفيما هي مترية تدير عينيها فعل الحائر، أبصرت على جذع التوتة هيكلاً مرتيمياً، فندت منه متخوفة، فوقعت عيناها، ويا لهول ما وقعت عليه! وقعت على جثة بيرام لا تزال نابضة بين الدماء، فطار لبُّها وكمد لونها وارتجفت كالورقة في مهب العاصفة، عرفت جسم من تحبه ومن داست الثقاليد من أجل حبه، وخاطرت بروحها في سبيل هواه، فحفقت بكفيها الناعمين ذراعيها البريئتين خفقات مرّة، وقطعت شعرها بأناملها الطرية، وارتمت على جسم بيرام الدامي تحتضنه وتقبل جرحه وتمزج دموعها بدمائه، تقبل ذاك الوجه البارد كالجليد وتصيح به: يا بيرام! يا حشاشة كبدي! أي قدر قاس انتزعك مني؟ أجبني يا بيرام! لماذا لا تكلمني؟ أنا تسبا قريك فاسمع صوت قلبي، ارفع رأسك قليلاً وافتح مقلتيك وانظر إلى الآمي ولوعتي. فاستفاق بيرام على نداء تسبا اللائعة، تلك الاستفاقة التي يسمونها استفاقة النية، ورنا إليها رنوة ملأى بمعاني الحب والحنان واليأس، ثم أطبق عينيهِ إطباقاً لا انفتاح لهما بعدها، فصرخت تسبا صرخة التكلّي أقدما المصاب عقلاها، وأخذت تقلب جسم بيرام في حركة المجنون، وتحنّطه بالقبل والدموع، وإذا بها ترى منديلها الممزق المخضب بالدم، وقراب الخنجر الفارغ، فأدركت سر موت حبيبها، وهذأت تخاطبه بحزن واستسلام قائلة: إن يدك يا بيرام هي التي قتلتك حزناً عليّ، لتوهّمك أن اللبوة قد افرستني! ولكن يدك غير مجرمة في قتلك، وإنما أن المجرمة الوحيدة؛ لأن حبي هو الذي سفك دمك، فإن يكن هذا الحب قوياً يدك قطعنت صدرك بخنجرك، فأنا لي أيضاً يد قوية وفي قلبي حب يقويني لأمزق بخنجرك أحشائي، وأتبعك إلى ما وراء هذه الحياة. إن الموت وحده كان في قدرته أن ينتزعك مني فأدرك الموت، وسأتحداه وألتحق بك إلى حيث لا تفرّقنا يد مفرق، فيا أبت المنكود الحظ، ويا أيها الوالد التاعس، والد حبيبي، إني أرفع إليكما رجاء عاشقين جمعهما الحب الأمين في مصير واحد، فارحماهما واجعلهما يستريحاً في قبر واحد، وأنت أيتها التوتة التي شهدت مصرع حبيبي وستشهد مصرعي، فلن تظلل بعد هنيهة إلا جثتين يلفهما الموت معاً بملاءته السوداء، احفظي أثر استشهادنا في الحب، واحمي حتى الأبد أثماراً سوداء حداداً علينا، أثماراً سوداء تشهد بأن العاشقين المشؤمّي الطالع: بيرام وتسبا، قد سقيك دماءهما التي سفكتها يداهما.

قالت هذا وتناولت الخنجر من على الأرض ودم بيرام لا يزال عليه فاتراً، وغرزته بين ثدييها، فسقطت فوق بيرام جثة هامة.

حمل الإله النسيم رجاء تسبا إلى آذان الآلهة وآذان والدها ووالد بيرام، فرأف بها الآلهة وجمعوا روحها وروح بيرام، روحي شهيدي الحب جمعوهما معاً في فردوسهم، حيث الربيع الأبدى المرصع بالورود والزنباق الطيبة الشميم، هناك في نهار دائم ونور نقى ولذة لا تنقضي يستظنان أشجاراً حملها البخور وثمارها تفاح ذهبي، وينهلان من سلسبيل الآلهة تحيط بهما غبطة خالدة وفرح لا يزول، وأحرق والداهما جسميهما ووضعاً رمادهما في إناء واحد دفناه في قبر مزروعة حوله أزاهير زكية العَرْف جميلة المرأى، ولبست التوتة ثوب حداد أبدي فهي منذ ذلك اليوم لا تثمر إلا أثماراً سوداء.

(٦) سليمان وبلقيس

حدثتنا توابع الجن قالت: كان في العهد القديم على بني إسرائيل ملك يقال له داود، عالي المكان في الأرض وعند الرب إلهه، ميسوط السلطان، وكان له ولد يقال له سليمان جمع إلى الذكاء والفتنة والحكمة حسن الشمائل وجمال الصورة، فكان يفضل على سائر إخوته مع أنه كان أصغرهم سنًا. وذات يوم شعر داود بأن شمس حياته أذنت بالمغيب، فاستدعى إليه سليمان وقال له: يا بني، إن أيامي على الأرض صارت قليلة، وإني لأحس بأن موتي قريب، وقد استدعيتك لأستخلفك من بعدي على مملكة إسرائيل؛ لأنني وجدتك أهلاً لذلك، فقبل سليمان يدي أبيه ورأسه وبكى حزناً لدنو أجل والده، ثم انصرف وكنم أمره، وتزوج امرأة واستتر عن الناس، وأقبل على العبادة والعلم، ورأت امرأته قعوده عن الكدح في سبيل العيش، فقالت له في أحد الأيام: بأبي أنت وأمي ما أكمل خصالك وأطيب رائحتك. ولا أعلم لك خصلة أكرهها إلا أنك في مئونة أبي، فلو دخلت السوق فتعرضت لرزق الله لرجوت ألا يخيبك الله. فقال سليمان: إنني ما عملت عملاً منذ كنت ولا أحسنه، ثم دخل السوق صبيحة يوم فلم يقدر على شيء، فرجع وأخبرها فقالت: غداً يكون إن شاء الله. فلما كان اليوم الثاني مضى سليمان حتى انتهى إلى ساحل البحر، فإذا هو بصياد يلقي شبكته، فقال له سليمان: هل لك أن أعينك وتعطيني شيئاً؟ قال: نعم. فأعانه، فلما فرغ أعطاه سمكتين، فأخذهما وحمد الله تعالى، وشق بطن إحداهما، فإذا هو بخاتم في بطنها فأخرجه ولبسه في أصبعه، فعكفت عليه الطير والريح، وخضعت له الجن والشياطين والعفاريت، ووقع عليه بهاء الملك وسناه.

ولم يلبث داود الملك أن مات، فقام سليمان مقامه في مملكة إسرائيل، وساس الرعية بالعدل، ورأى سليمان في نفسه حاجة إلى ما يوقع هيئته في نفوس مرتكبي الإثم، فأمر

الجن بأن يتخذوا له كرسياً ليجلس عليه للقضاء، وأن يصنعه بديعاً مهيباً بحيث لو رآه مُبطل أو شاهدُ زور ارتعد من هيئته، وكان بين الجن رجلٌ صناع يُقال له صخر. اشتهر ببراعته ودقة صنعته، فصنع لسليمان كرسياً من أنياب الفيل، وزينه باليواقيت واللؤلؤ والزبرجد، وحفّه بأربع نخلات من ذهب شماريخها الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وعلى رأس نخلتين منها طاوسان من ذهب، وعلى الأخيرين نسران من ذهب، وجعل بين جنبَي الكرسي في أسفله أسدين من ذهب، وعلى رأس كل واحد منهما عموداً من الزبرجد الأخضر، وعقد على النخلات دوالي من الذهب الأحمر، فإذا أراد سليمان أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا وضع رجله على الدرجة السفلى يستدير الكرسي بما فيه دوران الرحي، وينشر النسران والطاوسان أجنحتها، ويبسط الأسدان ذراعيهما، ويضربان الأرض بذنبيهما، وكذا يفعلان في كل درجة يصعدها، فإذا استوى في أعلى الكرسي أخذ النسران تاجه فوضعه على رأسه، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما ثم يستدير الكرسي بما فيه النسران والأسدان، وينضح الطاوسان على رأسه المسك والعنبر، فيتناول سليمان حمامة من الذهب فيها التوراة، فيقرأها على الناس، ويقضي فيهم بحسب ما ترسمه.

ولم يكن الإنس وحدهم يحتكمون إلى سليمان، وإنما كان يحتكم إليه الجان فيقضي بينهم، ويحتكم إليه الطير والوحوش والبهائم، وقد آتاه الله فهم منطقها، فيقضي بينها بالحق، وكان يفسر كل صوت سمعه من أصوات الطير: فالقمري يقول في تغريده: سبحان ربي الأعلى الوهاب. ويقول النسر: يا ابن آدم، عش ما شئت آخرك الموت. ورُوي أنه سمع فاختة تصيح، فأخبر أنها تقول: ليت الخلق لم يخلقوا. وأنه مر ببلبل يصوت ويترقص فقال: يقول: إذا أنا أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء.

ونال سليمان من المجد والسلطان ما لم ينله ملك من ملوك زمانه، وعظم جنده حتى كان معسكره مائة فرسخ في مائة فرسخ: خمسة وعشرون فرسخاً للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحوش، وكان حرسه اثني عشر ألف فارس، ومركباته الحربية ألفاً وأربعمائة مركبة. ولم يكن يخرج إلى حج أو غزو إلا حمل معه زوجاته وسراريه، وسار في جنده وحشمه وخدمه وكتابه ومطابخه ومخابزه وتنانير الحديد والقذور العظام، ورأى ما في نقلة هذه الأثقال والأحمال من صعوبة، فأمر الجن فصنعوا له بساطاً ذهباً في إبريسم فرسخاً في فرسخ، ووضعوا في وسطه سريراً يجلس فيه وحوله كراسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس والجن والشياطين، وتظلل الطير بأجنحتها لئلا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر بالغداة ومسيرة شهر بالعشي.

غير أن هذا البساط لم يكن ليسع معسكره ودوابه وآلة حربه حينما كان يذهب إلى الغزو، فكان يأمر بأن تضرب خشب فينصب على الخشب سريره، ويحمل عليها الناس والدواب وآلة الحرب، حتى إذا حمل ما يريد أمر العاصف من الريح، فدخل تحت تلك الخشب فحملها، فإذا استقلت أمر سليمان الرخاء، فمرت به شهراً في غدوته وشهراً في روحته، فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون ويطعم الأهل والحشم والخدم والجنود والدواب، هذا والريح تهوي به هويًا إلى حيث أراد.

وكان سليمان تقيًا ملاً قلبه حب الله وخوفه، فبنى هيكلاً للرب في أورشليم، بناءً فخماً جميلاً زانه بالعاج والجواهر الكريمة والذهب والفضة والبلور، وأخشاب لبنان من أرز وسرو وصندل، وبنى كذلك لسكانه منزلاً من أرز لبنان سمّاه غابة الأرز، وبيتاً من قوارير مرتفعاً على الخشب لزوجاته وسراريه، ولما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم، فتجهز للمسير واستصحب من الإنس والجن والشياطين والطيور والوحوش ما يبلغ معسكره فرسخاً في فرسخ، فحملتهم الريح على بساطه، فوافى الحرم وحجّ وأقام فيه ما شاء الله، وكان ينحر في كل يوم مقامة خمسة آلاف ناقه ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة.

وبعد أن قضى حجه سافر نحو اليمن، فوافى صنعاء وقت الظهيرة، فرأى أرضاً حسنة تزهو خضرتها فأعجبهت نزهتها، فأحب النزول فيها ليصلي ويتغدى، فهبطها ببساطه، ودخل وقت الصلاة، وكان سليمان قد نزل على غير ماء، فسأل الإنس والجن والشياطين عن الماء فلم يعلموا، وكان الهدهد — وهو رائد سليمان وقافيه — لأنه يحسن طلب الماء، قد قال في نفسه، حين نزل سليمان في تلك الأرض الحسنة: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فأرتفع إلى السماء وأنظر إلى طول الأرض وعرضها. فارتفع فنظر يميناً وشمالاً، فرأى بستاناً نضراً في أرض اليمن، فمال إلى الخضرة فوقع فيه، فإذا بهدهد هناك فهبط عنده، وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن عنفير، فقال عنفير اليمن ليعفور سليمان: من أين أقبلت وأين تريد؟ قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود. قال: ومن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطيور والوحوش والرياح. صاحب الخاتم المرصود ورب بساط الريح، فمن أين أنت؟ قال: أنا من هذه البلاد. قال: ومن ملكها؟ قال: امرأة تدعى بلقيس. فإن كان لصاحبك ملك عظيم فليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكة اليمن كلها وتحت يدها اثنا عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف مقاتل، وقومها مائة ألف قيّل، مع كل قيّل مائة ألف مقاتل. فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها؟

قال يعفور: أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء. قال عنفير: إن صاحبك ليسره أن تأتيه بخر هذه الملكة. فانطلق يعفور ونظر إلى بلقيس وملكها وتعرّف أمرها، وما رجع إلى سليمان إلا وقت العصر.

وكان سليمان قد تفقد الهدهد؛ لأنه احتاج إلى الماء لأجل الوضوء والهدهد رائده، ولأن الهدهد قد أخل بالنوبة؛ فإن سليمان كان إذا نزل منزلاً يجله وجنده الطير من الشمس، فأصابته الشمس من موضع الهدهد إذ وقعت نفحة منها على رأسه، فنظر فرأى موضع الهدهد خالياً فدعا النسر، عريف الطير، فسأله فقال النسر: أصلح الله الملك ما أدري أين هو وما أرسلته مكاناً. فغضب سليمان عند ذلك، وقال: لأعذبنه عذاباً شديداً، ثم دعا العقاب، سيد الطير، فقال: عليّ بالهدهد الساعة. فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى الترقق بالهواء، ونظر إلى الدنيا كالقصة بين يدي الأكل، ثم التفت يميناً وشمالاً، فإذا هو بالهدهد مقبل من نحو اليمن، فانقض نحوه يريده، فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده فقال: بحق الذي قوّك وأقدرك عليّ إلا رحمتني ولم تتعرض لي بسوء. فولى عنه العقاب وقال له: ويلك، ثكلتك أمك! إن نبي الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك، ثم طارا متوجهين نحو سليمان، فلما انتهيا إلى المعسكر تلقاه النسر والطير، فقالوا له: ويلك أين غبت في يومك هذا؟ فلقد توعدك نبي الله. وأخبروه بما قال سليمان. فقال الهدهد: وما استثنى رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: أو ليأتيني بسلطان مبین. قال يعفور: نجوت إذاً. ثم انطلق العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه، فقال العقاب: قد أتيتك به يا نبي الله. فلما قرب الهدهد طأطأ رأسه وأرخی ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعاً لسليمان، فلما دنا منه أخذ سليمان برأسه فمده إليه، وقال: أين كنت؟ لأعذبنك عذاباً شديداً. قال الهدهد: يا نبي الله، اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل. فلما سمع سليمان ذلك ارتعد فرقاً وعفا عنه، ثم سأله فقال: ما الذي أبطأك عني؟ فألهم الله الهدهد أن يقول له: قد أحطت علماً بما لم تحط به. قال سليمان: وماذا؟ قال: عجت على سبأ في اليمن، فوجدت ملكة عظيمة في مجدها وسلطانها وجمالها. قال سليمان: ومن هي؟ قال الهدهد: هي بلقيس بنت شَرْحَبِيل بن مالك بن الرِيَّان. كان أبوها ملكاً عظيم الشأن منبسط السلطان، وكان يملك أرض اليمن كلها، ويقول الملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفوًّا لي، وأبى أن يتزوج فيهم، فخطب إلى الجن فزوجوه امرأة منهم يقال لها ريحانة بنت السكن. قال سليمان: وكيف وصل إلى الجن؟ قال الهدهد: أخبرني هدهد اليمن سبب وصول الملك شَرْحَبِيل إلى الجن قال: إن شَرْحَبِيل خرج مرة إلى الصيد فوجد حيتين

سوداء وبيضاء تقتتلان. وقد ظهرت السوداء على البيضاء. فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها ماء حتى أفاقت فأطلقها وعاد إلى داره وجلس منفردًا، وإذا بجانبه شاب جميل فدعر شُرحبيل، فقال الشاب: لا تخف أنا الحية البيضاء التي أنجيتها. والأسود الذي قتلته هو عبد لنا تمرّد علينا وإني مكافئك. قال الملك: وبمَ تريد أن تكافئني؟ قال الجني: أدلك على الدفائن والكنوز. قال الملك: لا حاجة لي في المال. قال الجني: أعلمك علم الطب. قال الملك: إن الطب قبيح بالملوك. قال الجني: أما وقد أبيت هذين فإن لي بنتًا جميلة يقال لها ريحانة. لم يكن في بني آدمَ مثلها في الجمال، فإن جئت أزوجكها لكن بشرط أن لا تسألها عما تفعل، فإنك إن سألتها عما فعلت ثلاث مرات غابت عنك ولم ترها. فقبل الملك بالشرط وجاءه الجني، واسمه السكنُ، ببنته ريحانة، فتزوجها ورجع بها إلى منزله، فحملت منه ببنت، ولما ولدتها ظهرت نار فقدفتها فيها، فقال الملك: لِمَ فعلت هذا؟ قالت: أما شرطتُ لا تسألني عما أفعل؟ فهذه واحدة من الثلاث فاحفظها، ثم ولدت له ابناً، فجاء كلب فوضعه في فيه، فذهب به الكلب فصاح الملك وقال: لِمَ فعلت؟ قالت: ألم نشترط أن لا تسألني عما أفعل؟ فهاتان اثنتان. وكان في ذلك الزمان ملك اسمه ذو عوان بينه وبين شُرحبيل عداوة، فاحتال ذو عوان واصطاح مع شُرحبيل، وصنع له طعاماً ودعاه إليه، فحضره ومعه امرأته ريحانة، فلما وُضع الطعام بين يدي الملك ألقت ريحانةً فيه الروث، فرفع الملك يده عن الطعام، وقال: لِمَ فعلت؟ فقالت: أما شرطتُ لا تسألني عما أفعل؟ فهذه الثالثة. وسأخبرك بتأويل ما فعلت. أما النار والكلب اللذان رأيتهما فهما ظئران سلمت إليهما الولدين لئلا يكون لي تعب في تربيتهما، فإذا كبرا يردانهما عليك، وأما الروث الذي ألقيته في الطعام ففعلته لئلا تأكل من ذلك الطعام المسموم فتهلك؛ لأنهم سُمّوه لك، وها أنا ذا أرد عليك بنتك فإن ابنك قد مات عند حاضنته، هذا تأويل ما فعلت. قالت هذا وغابت عن عينيه، وإذا بجويرية قد خرجت من الأرض وهي بلقيس، وانقضَّ شُرحبيل بمن كان معه من رجال على عدوه ذي عوان فظفر به، وعاد وبنته إلى مأرب عاصمة ملكه.

وما ترعرعت بلقيس، وصارت امرأة ذات جمال ورأي وتدبير، حتى مات أبوها دون وصية، فطمعت بالملك ولم يكن له ولد غيرها، وطلبت من قومها أن يبائعوها فأطاعها قوم وأبى آخرون، وملكوا عليهم رجلاً يقال إنه ابن أخٍ لأبيها. وكان هذا الملك فاحشاً خبيثاً فاسقاً أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حُرَم رعيته ويفجر بهن، ولم يكن يبلغه عن بنت جميلة إلا أحضرها وهتكها، فأراد قومه خلعها فلم يقدرُوا عليه، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة، وكان قد طلب منها الحضور إليه، فأرسلت تقول له: بل

احضر أنت إليّ. فلما جاءها عرضت نفسها عليه، فأجابها: ما منعتك بالخطبة إلا اليأس منك. فقالت: لا أرغبُ عنك فإنك كفو كريم، فاجمع رجال قومي واخطبني إليهم. فجمعهم وخطبها فقالوا: لا نرى تفعل. فقال: بلى إنها قد رغبت فيّ. فذكروا ذلك لها فقالت: نعم. فزوجوها به، فلما زُفت إليه خرجت في أناس كثيرة من حشمها وخدمها، وعند المساء اختلت به وسقته الخمر حتى سكر فحزّت رأسه، وانصرفت إلى منزلها من الليل، ولما أصبحت أمرت بأن يعلق رأسه على باب دارها، ثم أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرعتهم، وقالت لهم: أما كان فيكم من يأنف لكريمته أو لكرائم عشيرته؟ ثم أرتهم إياه قتيلاً، وقالت: اختاروا رجلاً تملكونه عليكم. فأدركوا أن زواجها بالملك لم يكن إلا غدرًا وخديعة، وأجابوها قائلين: لا نرضى غيرك. وملكوها عليهم، فجلست على سرير الملك مكان أبيها فأطاعها الملوك، وكانت تجلس من كل أسبوع يومًا للحكومة، وتُحجّب عن الناس بأن تُلقى ستورًا رقيقة دونهم بحيث تراهم ولا يرونها، والناس وقوف في حضرتها مطرقون رءوسهم من هيبتها، وإذا كان لأحد عندها حاجة يسجد لها أولًا، ثم يعرض حاجته في حضرتها فتحكم بها، وإذا فرغت من الحكومة وانصاف المظلوم من الظالم تدخل بيتها السابع وتغلق الأبواب وتحرسها ألوف الحراس.

وبلقيس وقومها مجوس يعبدون الشمس، وقد بلغ من عزتها أن جعلت لنفسها عرشًا عظيمًا فخماً ثمانين ذراعًا في ثمانين طولًا وعرضًا، كله من ذهب وفضة مرصع بأنواع الجواهر والدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودرّ وزمرد، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.

ولما فرغ الهدد من كلامه قال سليمان: سننظر أصدقت فيما أخبرت أم كنت من الكاذبين. ثم كتب كتابًا صورته: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ. بسم الله الرحمن الرحيم، والسلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين. وطبّعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدد: اذهب بكتابي هذا فألقه إلى بلقيس وقومها، ثم تولّ وتنجّ عنهم إلى مكان قريب بحيث تراهم ولا يرونك، ليكون ما يقولون بمسمع منك ومرأى. فأخذ الهدد الكتاب بمنقاره وطار به.

وكانت بلقيس في عاصمتها مأرب، وهي من صنعاء على ثلاثة أيام، فوافها الهدد في قصرها وقد أغلقت الأبواب، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها، فأتاه الهدد وهي مستلقية على قفاها راقدة، فدخل عليها من كوة، وألقى الكتاب على نحرها بحيث لم تشعر به وتوارى في الكوة، فانتهبت بلقيس فزعته ورأت الكتاب

وكانت قارئة، فلما رأَت الختم ارتعدت؛ لأن مُلك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب أعظم مُلكًا منها، فجمعت المُلأ من قومها فجاءوا فأخذوا مجالسهم، وقالت لهم خاضعة خائفة: أيها المُلأ، إني ألقى إليّ كتاب كريم حسن مضمونه وما فيه. يا أيها المُلأ أفتونني وأشيروا عليّ. قالوا: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد، والأمر إليك، فانظري ماذا تأمرين. قالت: إني مرسله إليه بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون بقبولها أو ردها. فإن كان ملكًا قبلها وانصرف عنا، وإن كان نبيًا ردها ولم يرَضَ منّا إلا أن نتبعه على دينه. فبعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وزيهن وجليهن، وخمسمائة جارية عليهم زي الغلمان. أرسلتهم على خيول مسومة سروجها من الذهب، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقًا من ذهب، وفي آذانهم أقراطًا وشنوقًا مرصعات بأنواع الجواهر. وأرسلت ألف لبنة؛ خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة من فضة، وتاجًا مكللًا بالدر والياقوت، وبعثت بالمسك والعنبر والعود، وبِحقة فيها درة ثمينة عذراء غير مثقوبة، وجزعة مثقوبة معوجة الثقب، يحملها رسل من قومها أصحاب رأي وعقل أمّرت عليهم رجلًا من أشرف قومها يقال له المنذر بن عمرو. وكتبت كتابًا فيه نسخة الهدايا، وقالت فيه: إن كنت نبيًا فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحققة قبل أن تفتحها، واثقب الدرة ثقبًا مستويًا، واسلك في الخرزة خيطًا من غير علاج إنس ولا جان. وأمّرت الغلمان وقالت: إذا كلمكم سليمان فكلّموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء. وأمّرت الجوارى أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظره، وإن رأيته بشاشًا لطيفًا فهو نبي.

وكان الهدهد يسمع ما دار من الحديث، ولما وعاه كله انطلق مسرعًا ليخبر سليمان، فسبقه جبريل وأخبر سليمان بالحال، فأمر سليمان الجنّ فضربوا لبنات الذهب والفضة وفرشوها في ميدان بين يديه طوله تسعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطًا شرفه من الذهب والفضة، وأمر الشياطين فأتوا بأحسن الدوابّ في البر والبحر، فربطوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة، وألقوا علوفتها فيها، وأمر بأولاد الجن فأتوا خلقًا كثيرًا، وأقاموا عن اليمين وعن اليسار. ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، واصطفّت الشياطين صفوفًا فراسخ، والوحوش والسباع والطيور صفوفًا فراسخ، فلما دنا الرسل ووصلوا إلى معسكره والميدان، ورأوا عظمة شأنه وملكه والدواب التي لم ترّ عيونهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، وكان سليمان لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة، أمرهم

أن يتركوا على طريق الرسل موضعًا على قدر اللبانات التي معهم، فلما رأت الرسل موضع اللبانات خاليًا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يُتَّهَمُوا، فطرحوا كل ما كان معهم في ذلك المكان، ولما نظروا إلى الشياطين رأوا منظرًا عجبًا ففزعوا، فقال لهم الشياطين: جوزوا فلا بأس عليكم. وكانوا يمرّون على كردوس من الجن وكردوس من الإنس وآخر من الطير وغيرها من السباع والوحوش حتى وصلوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم نظرًا حسنًا بوجهه طلق، ثم قال لهم: ما وراءكم؟ فأخبره المنذر رئيس القوم وأعطاه كتاب الملكة، فنظر فيه وقال: أين الحقّة؟ فأتي بها فحرّكها، فجاء جبريل، لا يراه أحد، فهمس في أذنه وأخبره بما فيها، فقال سليمان: إن فيها لدرّة ثمينة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجّة الثقب. فقال الرسول: صدقت، فاثقب الدرّة وأدخل الخيط في الخرزة. فقال سليمان: من لي بثقبها؟ وسأل الإنس والجن فلم يكن عندهم علم ذلك، ثم سأل الشياطين فقالوا: أرسل إلى الأرضة. فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها، ودخلت في الدرّة ثم خرجت من الجانب الآخر. فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ فقالت: تصير رزقي في الشجر. قال: لك ذلك. ثم قال: من لهذه الخرزة يسلكها في الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها. فأخذت الدودة البيضاء الخيط بفيها، ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر. فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ قالت: تجعل رزقي في الفواكه. قال: لك ذلك. ثم دعا بالماء وعرضه على الغلمان والجواري ليغسلوا أيديهم. فكانت الجارية تأخذ الماء في يدها وتجعله في الأخرى، ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذ الماء يضرب به وجهه، فميز بذلك سليمان بين الوصفاء والوصائف، ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولا طاقة، ولنخرجهم من سبأ أدلة بذهاب عزهم وهم صاغرون أسرى مهانون.

قالت التوابع: ولما رجع الرسل إلى بلقيس بالهدايا التي ردها سليمان وقصوا عليها القصة، قالت: هو نبّي، وما لنا به طاقة. وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي؛ لأنظر ما الذي تدعو إليه. ثم جعلت عرشها في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض، في آخر قصر من سبعة قصور لها، وأغلقت دونه الأبواب، وولكت به حرسًا يحفظونه، وشخصت إلى سليمان بجيشها اللّهام حتى وصلت على مسيرة فرسخ منه، فخرج سليمان ذات يوم على سرير ملكه، فرأى رهجًا قريبًا منهم، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس نزلت منا بهذا المكان.

وكان الجن قد علموا أن بلقيس آتية سليمان، وأنه ربما تزوجها فتفتشي له أخبار الجن؛ لأنها جنية تربت عندهم، وخافوا أن يولد له منها ولد فتجتمع له فطنة الإنس

والجن، فيخرجوا من ملك سليمان إلى ملك أشد منه لا ينفك عن تسخيرهم من بعد أبيه، فعزموا على أن يحولوا بين بلقيس وسليمان، فجاءوا سليمان وأساءوا القول فيها أمامه وقبحوها له، وقالوا: إن في عقلها شيئاً وهي شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار. فأراد سليمان أن يختبر عقلها، كما فعلت هي بالوصفاء والوصائف، وأن يتعرف ساقبها ورجلها، ويربها بعض العجائب الدالة على عظيم قدرته وصدقه في دعوى النبوة، فأقبل على جنده فقال: يا أيها الملأ، أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ فقال صخر الجنى، وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه: أنا أتيك به قبل أن تقوم من مجلسك للحكومة — وكان سليمان يجلس إلى نصف النهار — وإني على حملي لقوي أمين لا أختزل منه شيئاً ولا أبدل به آخر. قال سليمان: أريد أسرع من هذا. فتقدم آصف بن برخيا وزيره على الجن، فقال له سليمان: ائتني بعرشها. فقال برخيا: أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك، مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك ثم أعده. فمد سليمان عينيه نحو اليمين ثم ردهما فإذا عرش بلقيس بين يديه، ذاك أن آصف بن برخيا كان مؤمناً، فدعا الله فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يحدون بطنها خدًا حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان.

ولما رأى سليمان العرش بين يديه قال: نكروه لها، غيروا هيئته وشكله واجعلوا مقدمه مؤخره وأعله أسفله، وضعوا الجوهر الأخضر مكان الأحمر والجوهر الأحمر مكان الأخضر ننظر هل تهتدي إلى معرفة عرشها وقد خلّفته في مأرب وراءها مغلقة عليه الأبواب موكلة به الحراس؟ أو تهتدي إلى الجواب الصواب إذا سئلت عنه أو لا، ثم أمر فبنوا له صرحاً صحنه من زجاج أبيض مملس تحته زجاج أخضر عليه تماثيل حيتان البحر وأسماكه وظيفاده، حتى أن كل من نظر إليه ظنه لجة، ونصب سريريه في صدره.

وجاءت بلقيس فترجّلت، ومشت إلى الصرح فقادها آصف ابن برخيا إلى حيث وضع عرشها وسألها: أهذا عرشك؟ فنظرت إليه فعلمت أنه عرشها ولكنها أرادت أن تشبه عليهم كما شبّهوا عليها، فقالت: كأنه هو. وقد أجابت أحسن جواب، ولم تقل: هو. لاحتمال أن يكون مثله، وذلك لاكتمال عقلها. قال آصف: فادخلي الصرح. فلما دخلته رأت صحنه فحسبته لجة فكشفت عن ساقبها لتخوضها، وقالت في نفسها: إن سليمان يريد أن يغرقني وكان القتل علي أهون. فلما رآها سليمان رأى أحسن الناس ساقاً وقدمًا إلا أنها شعراء الساقين، فصرف بصره عنها ثم قال لها: إن ما تظنين ماءً صرحٌ ممرّدٌ مُستوٍ من قوارير. وأراد سليمان أن يتزوجها، فكره شعر ساقبها، فعلمت له الشياطين النورة والحمام، فكانت النورة والحمام منذ ذلك اليوم. فطأت بلقيس ساقبها فسقط شعرهما، ثم تزوجها سليمان

وأقرّها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها في أرض اليمن ثلاثة حصون لم يُرَ مثلها ارتفاعاً وهي: بينون وسلحين وغمدان. وولدت بلقيس لسليمان غلاماً سماه داود مات في حياة أبيه، ثم ماتت بلقيس قبل سليمان، في الشام، فدفنها في تدمر وأخفى قبرها عن الناس. ولما قضى الله على سليمان الموت مات وهو قائم على عصاه، ومكث حولاً مبيتاً والجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كلفهم إيها، يعملونها على عادتهم لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخرّ على الأرض، فتبيّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين.

ولما كشف الجن موته، بعد أن دلّتهم عليه دابة الأرض، أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجن، إن سليمان قد مات فارفعوا أيديكم. فرفعوا أيديهم وتفرقوا.

القسم الثاني

(١) أدونيس وعشترت

المقدمة

لم يكن أدونيس وعشترت إلهين فينيقيين حسب، وإنما كانت عبادتهما مزدهرة في كل الأصقاع التي أثر فيها الفكر الفينيقي والمدنية الفينيقية، ويعتقد المستشرق ج. فرايزر في كتابه «أدونيس» أن عبادة هذا الإله نشأت عند الشمريين، ثم انتقلت إلى بابل فإلى فينيقية في القرن السابع قبل المسيح.

واسم أدونيس الأصلي «تموز»، ومعناه في اللغة الشمرية: «الابن الحقيقي للماء العميق»، أما لفظة «أدونيس أو أدون» فسامية معناها «سيدي» كانوا يلقبون بها «تموز» احتراماً له، فجعلها اليونانيون علماً لهذا الإله، وتناسوا اسمه الأصلي.

ويزعم القبرسيون القدماء أن أدونيس هو ابن ملكهم سينيراس، وهذا الملك هو الذي وضع شريعة الزناء المقدس في معبد أدونيس وفينوس، في جزيرة بافوس، الواقعة من قبرس في جنوبها الشرقي، وقد تولى أدونيس الملك بعد أبيه، وليس اسمه إلا لقباً حمله كل أبناء الملوك الفينيقيين في جزيرة قبرس.

وأدونيس هو أحد الآلهة الذين رمزوا إلى القوات المنتجة في الطبيعة، وقد اعتبروه روح الحقل، ويوئم موته وبعثه تبديل الفصول أو توارى الحياة النباتية في الشتاء وظهورها في الربيع، ومغزى خرافته هو الكفاح بين قوات الحياة وقوات الموت، بين العالم الأرضي وعالم

تحت الأرض، حتى إنهم زعموا أن سيطرة الحب تقف في أثناء غياب أدونيس في الجحيم، فينقطع البشر والحيوانات عن إنتاج الجنس، وتهدد الحياة كلها بالفناء. أما عشتروت فألهة أشركها عبّادها في كل الأعمال الجنسية في المملكة الحيوانية، فهي المولدة لكل شيء والممثلة لقوة توليد الطبيعة، وليست عشتروت إلا عشتار البابلية وأفروديت اليونانية وفينوس الرومانية والزهرة العربية، فأسطورة أدونيس إزًا شمريّة بابلية فينيقية قبرسية يونانية رومانية، وقد استلهمها الشعراء منذ الزمان القديم وتغنوا بها وتفننوا في تلوين صورها ما شاء لهم خيالهم.

المعجم

الشمريون: شعب كان في فجر التاريخ ينزل في السهول المنبسطة بين دجلة والفرات قرب الخليج الفارسي، وقد أصيبت بلادهم قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة بطوفان عرف في التاريخ بالطوفان الشمري، فاجتاحها وهدّم مدنها التي كانت في ملء ازدهارها، ولكنها لم تلبث أن عادت إليها الحياة، وانبعثت مدنها وفيها «نيبور» المدينة المقدسة، ثم أخذت تطغى عليها رمال البحر، فكافحت طغيانها فلم تستطع ردها، حتى تلاشت نفسًا في نفس، وبادت مدينتها ونشأت على أنقاضها المدينة البابلية.

فينوس: هي بنت جوبيتر والحورية ديونه بنت أورانوس (السماء) وريا (الأرض)، وكانوا يزعمون كذلك أنها تولدت من زبد البحر، فخرجت منه في صدفة لؤلؤية عارية ترفع بيديها شعرها الطويل المبلل، ومعنى اسمها الغرام أو الوصال والعرب يسمونها الزهرة، ويسميها الفينيفيون عشتروت، وقد سميها — في الأسطورة — فينوس حينما كان مدار عملها خارج لبنان، ثم سميها عشتروت منذ اجتمعت بأدونيس في أفقا حتى آخر الأسطورة، وعشتروت أو فينوس هي إلهة الحب والتهتك وربة الجمال.

كوبيدون: هو إيروس اليوناني، إله الحب، وكانوا يمثلونه ولدًا أشقر جميلًا مجنحًا مسلحًا بقوس، وحاملًا على كتفه جعبة ملاء بالسهام، وعيناه معصوبتان يرمي القلوب بسهامه، فتقع حيث اتفق لها الوقوع.

المُر: مادة صمغية عطرية كان عبّاد أدونيس يحرقونها في معابده؛ لأنها دموع الشجرة التي تحولت إليها أمه.

فُرْسِيفين: ملكة الجحيم. ومعنى اسمها مميتة، جَلَّابة الموت. أبوها زفس «جوبيتر» وأمها نيتيمير «سيريس» أي الأرض الوالدة إلهة الزروع والخصب والحصاد.
ديانا: أو فيبه. كانت إلهة تمثل القمر. إلهة برية تطوف في الغابات والجبال الموحشة تصحبها عصابة من الحوريات.
قبرس: لفظة يونانية معناها جناء.

(٢) أسطورة أدونيس والشعراء

نُتبت على الصفحات التالية ما أوحته هذه الأسطورة إلى الشعراء في بعض الآداب العالمية.

في الأدب البابلي

نوح القيثارات على تموز

لما توارى ناحت هاتفة: يا ولدي!
لما توارى تنهدت زافرة: يا سيدي!
لما توارى ارنت معولة: يا سروري ودليلي!
لما توارى أنت حسرة.
أرسلت أنتها في «إيانا» بين الجبال والأودية.
عويل أسرة لا رب لها، هكذا عويلها.
نوح مدينة لا سيّد لها، هكذا نوحها.
تنوح على العشب لا جذور له.
تنوح على القمح لا سنابل له.
بقي بيتها لا فرح فيه.
هي امرأة منهوكة وولد ملول ذوى قبل أوانه.
تبكي النهر الكبير حيث لا تنمو صفصافة.
تبكي حقلاً لا ينبت قمح ولا عشب فيه.
تبكي غديرًا هجرته الأسماك.

تبكي بقاعاً عارية من القصب.
تبكي الغابات غاب الأثل عنها.
تبكي السهل لا ينهض السرو فيه.
تبكي البستان الظليل لا قفير فيه ولا كرمة.
تبكي المروج المعرّة من الأزهار.
تبكي قصرًا غادرته الحياة الطويلة.

في الأدب الإنكليزي

لقاء فينوس وأدونيس لشكسبير

ما كادت الشمس تستقبل بوجهها القرمزي آخر وداع من الفجر الباكي حتى مضى أدونيس بخديه الورديين إلى الغاب، كان يحب الصيد ويهزأ بالحب، ومشت عشتروت الكئيبة إليه، ودنت منه بجرأة العاشق قائلة: أنت يا من أنت أجمل مني بثلاث مرات، يا زهرة المرج الطرية التي لا شبيهه لطبيها، أنت الذي يكشف حسنه حسن حوريات الماء. يا أطف الخلق! إنك أشد بياضاً من الحمام وأكثر احمراراً من الورد، والطبيعة التي صورتك تناقض نفسها في قولها: إن العالم ينتهي بانتهاء حياتك.

تنازل أيتها الآية العجيبة وترجّل عن جوادك واربط في سرجه عنانه المحبوك من فوق رأسه المتعرج، وإذا أصغيت إليّ وأوليتني هذه المنة علمتك ألف نجوى لذيدة عذبة. تعال واجلس حيث لا أفعى دنّست الأرض، وحين تقعد أغمرك بالقبل، لماذا أنت مطبق شفّتك لا تشبعهما من القبل، تجوّعهما مع أنهما خصبتان بالنضارة؟

قالت هذا وأمسكت كفه الممتلئة حياة وهي ترتجف غراماً، ثم جمعت قواها وهي في ملء اضطرابها لتحدره عن فرسه، أمسكت لجام الفرس بيد، وبالأخرى ذاك الصبي الطري وقد احمرّت وجنتاه حياء وأظهر بحركة من شفّته نفوره، كانت عشتروت الممتلئة شهوة محمرة كالجمرة لاشتعالها بحرارة الحب، وكان هو بارداً محمر الوجه من الخجل، ربطت فرسه وحاولت ربطه بقوتها البدنية لا باستسلامه إليها.

من قصيدته «أدونيس»

في الأدب الفرنسي

بكاء فينوس على أدونيس للافونتين

إن حبي لم يستطع أن يحببك بالحياة، تتركني أيها القاسي، فعلى الأقل أظهر أنك تحس وداعي المحزن، انظر بأي ألم أصيبت حبيبك، ويلاه! بكيت كثيرًا ولكنه لا يسمع نواحي، إن ليلاً أبدياً يكرهه على تركي، فلا دموعي ولا تنهداتي تستطيع إمساكه، وليتني أقدر أن أتبعه إلى تلك الأماكن المظلمة.

أيها المقدور إذا كنت قد شئت أن تراه يفنى سريعاً، أترى من الواجب إكراهي على أن لا أموت أبداً؟

يا فينوس التاعسة، ماذا تفيدك هذه الدموع؟ تبجّحي الآن بسلطان مفاتنك! إنها لم تستطع أن تعصم حبك من الموت.

الوداع إذاً يا ذا النفس الجميلة!

احمل إلى ما بين الأموات هذه القبله المشتعلة.

إنني لن أراك أبداً، فالوداع يا أدونيس العزيز.

من قصيدته «أدونيس وعشروت»

في الأدب اللبناني

من خطاب على لسان أدونيس لهكتور خلاط

ما دام جسدي سيتحول يوماً إلى تراب، أودُّ ساعة أنحدر إلى الجحيم، أن أجتاز بخطوة المتكبر عتبة القبر الباردة، حتى لا يبدو للفانين ميت أجمل مني. وحينما تستعاد ذكرى صورتني المتناثية، بشرية كانت أو فوق البشرية، وهمية أو حقيقية، فعداري صيدون وغرائق صور يلطمون بأن يسيروا في موكبي الذهبي، وهم موقنون من أنهم في اتباعهم أثري يصلون، دون عائق، إلى الشواطئ المعتمة التي تحوم عليها الأطياف الشاحبة، والشعراء الخالص، الذين لا يؤمنون بسوى الحلم، يجهدون أن يتغنوا في شعرهم، برزيئتي على قيثارتهم المنجحة، باذلين قواهم في إذاعة اسمي على كل ريح.

وهكذا حين أنام نومة الأبد كاسف اللون مشوّهاً متجلي الصورة تمجدي أناشيد البحارة، وتبكي علي شبّابات الرعيان، وأتخذُ موضوعاً يتبارى فيه الشعراء والنائحات،

وتغمرنى الطيوب والأشعار المتعالية حتى النجوم المنطفئة، أكون، لضيق جسدي عن استيعاب روحي، قد خلعت ثوبي البشري وأنا مكلل بالنضار وفي يدي سعفة نخل وجثماني مكفن بالأرجوان تحت أرزة نفسها أبدية الاخضرار، خلعت ثوبي البشري هاربًا من هذا العالم الباطل لأصير إلهيًا.

من قصيدته «أدونيس»

وصف أدونيس

للدكتور حبيب ثابت

يا إله الجمال والحب والسحر	حلاًّ ويا حبيب العذارى
جاءك الكون ساجدًا وتمنّى	لو يصير الجمال ربًّا فصارا
مسح الليل خصلتيه بعينيك	مرارًا حتى أغار النهارا
والنجوم الزهراء في جبهة الشـ	رق تمنّت لو أصبحت لك دارا
وتمنّى الشقيق في كل وادٍ	لو تملّى من وجنتيك احمرارا
وتمنى الحمام في كل طوقٍ	لو تهادى عن جانبك وطارا
وتمنى الغصن المصفق لو سا	ر صباحًا إلى حماك، فسارا
أنت يا جمرة القلوب على الشوق	ويا قبلة الهوى كيف دارا
جعلوا الشعر في جمالك غمزًا	والقوافي المؤنّثات ستارا

من قصيدته «عشروت»

(٣) قدموس وأوروبا

المقدمة

أسطورة قدموس فينيقية يونانية يمثل فيها زفس، رب أرباب الأولب وإله المطر والرياح والصاعقة، وزوجته هيرا الإلهة الحامية للزواج، دورًا عظيمًا، ثم تبناها الرومان فجعلوا جوبيتر وزوجه جونون يحلّان فيها محل زفس وهيرا، وقد ذكر هذه الأسطورة كثيرون من المؤرخين منهم هيروdot وسيك وبوسانيا ونقلوا الدمشقي، ونظمها كثيرون من الشعراء

شعرًا، وأشار إليها هوميروس، وقصها الشاعر اللاتيني أوفيد بين الأساطير التي نظمها في كتابه «التحول». وقدموس فيها بطل لبناني أبوه آجينور ملك صور، وأوروبا أخته، وهو عند علماء الميثولوجيا رمز تأثير حضارة الفينيقيين وثقافتهم في حضارة الإغريق وثقافتهم الفطريتين، ثم في حضارة أوروبا وثقافتها، وإليه يعزى نشر العمران في تلك الأصقاع، وإذاعة فنون بناء المدن وكدن الثيران إلى المحارث، والفلاحة، واستثمار المعادن والمناجم، واختراع الأبجدية ونقلها إلى اليونان، وينسب إليه كذلك كل ما يتعلق بما اقتبسته الحضارة الإغريقية من الحضارة الفينيقية.

المعجم

قدموس: لفظة يونانية معناها: القاهر المظفر، وأوروبا لفظة سامية أصلها عروبًا ومعناها الغرب، ويقول هيرودوت: إن أوروبا الفينيقية هي التي أعطت القارة الأوروبية اسمها؛ لأن هذه القارة لم يكن لها اسم في ذلك الزمان البعيد.

زفس: هو جوبيتر الرومان ومعنى اسمه: المحيي أو الهواء الأعلى، ويسميه العرب المشتري. **هيراء:** هي جونون الرومان ومعنى اسمها: الاتحاد الزوجي ورئيسة المجتمع. وهي أخت زفس وزوجته.

أوفيد: واسمه نازون من أسرة ستيفاليه، وُلد في سولمون عاصمة مملكة أستوريا في إيطاليا، سنة ٤٣ ق.م. وكان مولده في عهد المثلث الروماني: أوكتافيوس، وأنطوان، وأوريببديس، عهد الدسائس والخيانات والجرائم والحروب. ودرس على الخطيب الروماني ميسالا، ونبغ في الشعر حتى قال عنه سينيكا: إنه الشاعر العبقرى الفتان. كان شاعر الشيببة السعيدة، شاعر الأمل والحب الطروب والجمال والتهتك والمرح والأناقة، وكان العاشق الحقيقي في الجاهلية اللاتينية، يحب الحياة ضحاكة ويسعد بحياته معتقدًا أن الشباب أبدي، وكان في أول أمره يتمتع بعطف الإمبراطور أوغسطس، غير أن هذا الإمبراطور لم يلبث أن نفاه، في السنة التاسعة للمسيح، لأمر لا يزال سرًا، فترك روما وزوجته وابنته بيربلا وسافر باكيًا شاكياً إلى بلاد السيت، شمالي البحر الأسود، بلاد الجيت والسرقات البرابرة، ومات هناك سنة ١٦ للمسيح.

وبينما كانت الإمبراطورة كاترين الروسية العظيمة تسيح في مملكتها الواسعة عثرت بين خرائب مدينة «القتل» التي سميت بهذا الاسم؛ لأن الخرافات تقول: إن الساحرة ميدي مزقت هناك جسد أخيها، عثرت الإمبراطورة على قبر مهمل، فوقفت قربه حاملة، وأرادت أن تعرف من يرقد فيه بين العواسج، فقيل لها: إنه شاعر روماني منسي اسمه. وكانت كاترين تعرف تاريخ إمبراطوريتها، وهي تلميذة فولتير وصديقه، فعرفت أنه قبر أوفيد فترقرقت دمعة في عينيها، دمعة مجيدة بليغة في عيني امرأة لم تكن تبكي إلا نادرًا، وهكذا بعد ثمانية عشر قرنًا غسلت الإمبراطورة المطلقة السلطة بدمعتها خطيئة أوغسطس الإمبراطور المطلق السلطة.

فينيقية: بلاد البلح.

بوصيدون: هو نبتون الرومان، أخو زفس وآديس (بلوتون الرومان)، ومعنى اسمه غير المنظور، وكلهم أبناء قرونوس أي المتمم (زحل العرب وساتورن الرومان) إله الزمان، اقتسموا الكون فكان لزفس السماء والأرض، ولآديس الجحيم فهو إله الظلمات والسافلين، ولبوصيدون البحر ذو الزبد الأبيض، ويرمز بوصيدون الفينيقي إلى ازدهار ملاحه الفينيقيين الحربية والتجارية.

مركور: هو هرمس اليونان وعطارد العرب، أبوه جوبيتر وأمه الحورية مايا، كان رسول الآلهة إلى الأرض وإله البلاغة والتجارة واللصوصية وحامي الطرق، وكان معهودًا إليه بأن يقود نفوس الموتى إلى الجحيم، وقد مثَّله لابسًا قبعة ذات جناحين وفي رجليه حذاء لكل فرد منه جناحان.

الأولمب: جبل بين مقدونيا وتساليا كانوا يزعمون أنه مقام الآلهة، أما عرش زفس رب الآلهة فلم يكن فيه، وإنما كان على قمة جبل أيدا (المشرق) في جوار طروادة.

أكريت: معنى اسمها المعتدلة.

أبولون: إله النور والفنون الجميلة والكهانة عند اليونان والرومان، أبوه جوبيتر وأمه لاطونة (الليل) وهو وأخته ديانا إلهة الصيد توأمان، كان له معبد في دلف على سفح جبل البرناس مبنيًا مقدسه فوق شقٍّ من الأرض ينبعث منه بخار يحدث لمتنشقه سكرًا موقوتًا، فكانوا يُقعدون فوقه نساء لا تقلُّ سن الواحدة منهن عن الخمسين ويسمونهن بيثي، وكانت هؤلاء النسوة هواتف أبولون يعلن إرادته ويتعاقبن في القعود فوق الشق في المقدس السري بعد أن يتطهرن بأن يشربن من ماء ينبوع كاسوتيس ويعلكن أوراق

القسم الثاني

غار، وكانت الواحدة منهن تجلس فوق الشق على كرسي ذي ثلاث قوائم، ويقعد قربها كاهنان، فإذا أخذتها النشوة وجعلت تهذي، التقط الكاهنان هذيانها وفسراه شعرًا بأمر معقولة، على أنهم كانوا إذا أشكل عليهم شيء أجابوا عنه بجواب مبهم، وكثيرًا ما كان أصحاب المآرب من كبار الناس يتفقون والكهنة على مبلغ من المال ليأخذوا منهم ما يريدونه من جواب على أسئلتهم، واسم أبولون معناه الهدّام ويلقبونه بفيبوس أي المنير.

المريخ: هو آريس اليونان ومارس الرومان، أبوه جوبيتر وأمه جونون، وهو إله الحرب والقتل والتدمير ومعنى اسمه اليوناني «الحرب».

الثعبان: مأخوذ وصفه مع بعض تصرف عن أوفيد.

أثينا: وتلقب بفالاس، هي مينرفا الرومان تولدت من دماغ جوبيتر، كانت إلهة الحرب والحكمة والفنون والعدل والصحة العقلية والبدنية، إلهة عذراء حامية الأسرة والمدن. علّمت اليونانيين زراعة الزيتون، وكانت بارعة بالنسج، وخصص بها من الطيور البومة، كانوا يمثلونها فتاة جميلة على رأسها خوذة وفي يديها حربية وترس، وعلى صدرها درع من جلد المعزاية أمالته التي غدت جوبيتر بلبنها.

تريتون: هو ابن بوسيدون (نبتون) إله البحر، وأمفيتريت بنت الأوقيانوس الإله الذي لا إله فوقه إلا زفس، ومعنى اسمه السريع الجري.

هيفيست: معناه برّاق، هو فولكان الرومان، إله النار ومثير البراكين والصواعق وحداد الآلهة.

أكتيون: ربيب خيرون (الأدنى) القنطور (مثير الثيران) الشهير، والقنطور رجل حتى أسفل بطنه بمؤخرة فرس ذكر وأربع قوائم، وخيرون هو ابن قرونوس وأخو زفس وأمه فيليريا بنت الأوقيانوس، أحبها قرونوس إله الزمان ففاجأته وإياها زوجها ريًا (الأرض) والدة زفس وهيرا، ففرت فيليريا إلى الجبال، وولدت خيرون، فسكن هذا في مغارة في سفح جبل بليون، وكان يتميز من سائر القنطرة بطبيعته المحسنة وحبه للعدالة وعنايته بالجرحى والمرضى، ويعتبر أنه أحد مخترعي الطباعة.

ديانا: أرطيميس اليونان وتلقب فيبي، إلهة الصيد، إلهة عذراء شديدة المحافظة على عذرتها وهي ابنة جوبيتر ولاطونه وأخت أبولون.

بان: معناه الريح، هو ابن مركور ورب الرعاة والقطعان يمثلونه برأس رجل له قرنان وأسفل جسمه يشبه جسم التيس، ويضعون في يده عصا.

نيفيله: إلهة ثنوية.

فريكسوس وهله: كانت تبغضهما أينو زوجة أبيهما أتاماس، فأرسلت لهما أمهما نيفيله خروفاً ذا جزة ذهبية فحملهما وطار بهما في الهواء، فزلت هله عن ظهره، وسقطت في البحر، فحمل اسمها «هلسبونت» (الدرنديل)، أما فريكسوس فنزل في بلاط أتيس ملك كولخيد وذبح الخروف قرباناً لجوبيتر، وأهدى جزته الذهبية للملك أتيس.

(٤) مينوس وأريان

المعجم

مينوتور: معناه نصف ثور.

إيريس: رسولة جونون، ومعنى اسمها عاقدة، وهي من الإلهات الثنويات، كانت تحمل رسائل جونون إلى الأرض، فتنحدر في شكل قوس ملون بأجمل الألوان.

باخوس: هو زيون اليونان إله الخمر والكرمة والطرب واللهو، كان عباده يمثلونه وعلى رأسه قرنان؛ لأنه كان في رحلاته يلبس جلد تيس؛ ولذلك كانوا يقربون له التيوس في الأعياد الباخوسية، وقد أعطي اسم التيس الأناشيد التي كانت تنشد إكراماً لهذا الإله، فقيل لها «تراجيدي»، ومعنى هذه اللفظة «أنشودة التيس»، ثم إن الشاعر اليوناني تسبس أدخل على هذه الأناشيد الحوادث المحزنة فكان ذلك أصل التراجيدي التي نسميها بالعربية المأساة، كما كان تمثل الأسرار المقدسة عند مسيحيي إسبانيا الأقدمين أصل المسرح الأوروبي.

(٥) ديدون الصورية

المقدمة

يعتبر بعض المؤرخين ديدون الصورية بانية قرطاجنة شخصاً أسطورياً ولدته مخيلة الشعب الفينيقي، ويراها آخرون شخصاً حقيقياً غامر مغامرة جريئة أدت إلى تأسيس تلك المستعمرة الفينيقية في الشمال الأفريقي، المستعمرة التي ملأ شعبها التاريخ العالمي بأعماله الحربية وبطولته وسيطرته التجارية زمنًا طويلاً.

وأسطورة ديدون فينيقية مغربية تبتدئ في صور وتنتهي في قرطاجنة، واسم ديدون الأصلي عليشار وليس «ديدون» ومعناه «الهاربة أو اللاجئة» إلا لقباً لها لقبت به بعد فرارها من صور على أثر فتك أخيها بغماليون بزوجها سيشاربعل.

وفي قتل بغماليون لسيساربعل قولان: أحدهما أن سيشاربعل كان ذا ثروة عظيمة فطمع فيها بغماليون وقتله ليستأثر بها. والقول الثاني أن بغماليون كان مهملاً شئون المستعمرات الفينيقية في أفريقية، ولم يكن يهتم بتدارك الاستعمار اليوناني في تلك الأصقاع، الذي كان يزاحم صور، سيدة التجارة والبحار في ذاك العهد، في مستعمراتها الأفريقية ويهدد تجارتها في جنوب أوروبا، ونفوذها الأدبي والفني، فرأى سيشاربعل، وهو أكبر كهنة ملكرت وأول شخص في المدينة بعد الملك، أن في عمل بغماليون هذا خيانة لمصالح صور وتفريطاً فيها، فألف حزباً من الغاضبين على سياسة بغماليون، ودعاهم إلى تأسيس مركز قومي في الشمال الأفريقي من المغرب ليكون قاعدة تحمي السواحل، فعرف بغماليون بذلك وتوقع شراً، فسدّ من رجاله من اغتال بعض رجال الحزب المعارض، ثم اغتال صهره زعيم المعارضة، فتزعمت زوجته عليشار الحزب وفرت بأصحابها وأموال زوجها وأموال مبعد ملكرت، ونزلت في بروجيتانه، قرب تونس، في مكان يعرف اليوم بدوار الشط، وبنت حصن برسا على تلال جون البحر، وعلى مقربة من أوتيكا لتزاحمها وتنتزع منها السيادة، فكان ذلك الحصن نواة لقرطاجنة، ولكنّ عليشار لم تتمتع بثمرة عملها العظيم؛ لأن يارباس، ملك جيتول وزعيم القبائل البربرية، أراد الزواج بها فأبت وقتلت نفسها تخلصاً منه.

وقد زعم فرجيل الشاعر اللاتيني أن ديدون انتحرت حزناً لفراق حبيبها إنياس الأمير الطروادي، وذاك أن إنياس بن أنخيز وفينوس، إلهة الجمال والحب، فرّ بعد سقوط طروادة بيد الإغريق، مع جماعة من الطرواديين فتقاذفت سفنهم العواصف حتى قذفت بهم إلى شواطئ قرطاجنة، فذهب إنياس إلى بلاط ديدون يستأذنها البقاء في أرضها إلى أن تجتمع سفنه التي بعثرتها العواصف فيرحل عنها، فأخذت ديدون بجماله وبطولته وأحبهته، وعطفت جونون ربة الأولب على حبها، فأخرجتهما معاً إلى الصيد، ثم فجأتهما بعاصفة شديدة فلجأ إلى مغارة، وهناك باركت جونون زواجهما.

لكن فينوس أم إنياس لم ترص عن هذا الزواج؛ لأنها كانت تخشى أن يبقى ابنها في قرطاجنة، وهي تعدّه لإنشاء الشعب اللاتيني العظيم، فشكت أمرها إلى والدها جوبيتر، فأرسل ابنه مركور فحوّل فكر إنياس عن حب ديدون، وبين له عظم الرسالة التي سوف

تتم على يديه، فأبحر إنياس، على دموع ديدون وتوسلاتها، قاصداً إلى إيطاليا، فنزل بديدون حزن شديد أدى بها إلى الانتحار. وفي زعم فرجيل هذا كذب على التاريخ بثلاثمائة سنة ونيف، فإن الدكتور شوش ديدلبرغ بعد درسه زمان كسوف الشمس الذي وصفه هوميروس في إنيادته، ومقابلته إياه بأزمة الكسوفات التي تعاقبت بعده، تمكن من تحديد بداية حرب طروادة في سنة ١١٩٧ ق.م. ونهايتها بسقوط المدينة في يد الإغريق في سنة ١١٨٧، في حين أن بناء قرطاجنة كان بين سنة ٨٦٠ و٨٨٣، ولا يمكن أن يكون إنياس قد عاش هذا العمر الطويل، إلا إذا كانت أمه فينوس قد منحته الخلود، وهذا لا أثر له في الميثولوجية اليونانية.

المعجم

صور: لفظة فينيقية معناها الصخرة، ويزعمون أن صور بُنيت سنة ١٢٥٢ ق.م. ويقول المؤرخ اللاتيني جوستين: إن الصيدونيين الذين كانوا يحاربون في طروادة بنوها بعد رجوعهم إلى بلادهم.

قرطاجنة: بنيت سنة ٨٨٣ ق.م. على الشاطئ الغربي من تونس الحالية على أنقاض مدينة صيدونية قديمة كان اسمها غامبه، في صدر جون عرف قديماً بجون قرطاجنة، ويعرف اليوم بجون تونس، ويقول بعض المستشرقين: إن اسمها الفينيقي «قرينا حادت»، ومعناه «القرية الحديثة»، ويرجح الأب يوحنا شديد الكاهن الماروني العالم باللغات الشرقية أن اسمها الفينيقي «قرينا جنتا» ومعناه «قرية الجنات»؛ سُميت به لكثرة ما هناك من جنان وبساتين، بدليل أن تونس تلقب من أجل ذلك بـ «الخضراء»، وقد سماها اليونان «كارشيدون»، وسماها الرومان «قرطاجنة» وهذا الاسم تنبأه العرب.

الملك الفينيقي: كان الفينيقيون يسمون ملك المدينة أو حاكمها «شقظيم».

إيزابيل الصوريّة: تزوجها آخاب ملك إسرائيل، فولدت له عثلية التي وضع الروائي الفرنسي راسين من أجلها مأساة «أتالي»، بنت عثلية لبعل الفينيقي هيكلًا في السامرة عاصمة ملك زوجها، ونشرت فيها عبادة عشتروت.

(٦) سميراميس البابلية

المقدمة

تختلف الروايات بشأن سميراميس ملكة بابل، فالمؤرخون القدماء أمثال هيرودوت وستيزياس وديودور وجوستين يتكلمون عليها كملكة تاريخية، ويجعلونها في منزلة سامية تضارع منزلة سيزوستريس في التقاليد المصرية، ويعزون إليها أروع المباني والمنشآت البابلية وأفخمها، وقد زوجها الملك نينوس مؤسس نينوى، ونسبوا إليهما معًا فتوحًا عظيمة.

ويقول هيرودوت: إن سميراميس كانت قبل نيتوكريس ملكة بابل الشهيرة بخمسة أجيال، تملك نحو سنة ٧٥٥ ق.م. ويظهر من هذا القول أن هيرودوت يعتبر الجيل ثلاثين سنة؛ لأن نيتوكريس هي أم نبو كد نصر تملك على بابل من سنة ٦٠٤ إلى سنة ٥٦١، فتكون سميراميس قد تقدمت نيتوكريس بزهاء مائة وخمسين سنة.

ويزعم بعض المؤرخين أنها كانت قبل المسيح بألفي سنة، وأنها ملكت اثنتين وأربعين سنة، وماتت في عام ١٩٦٤، ولكن الأكثرين يوافقون هيرودوت على أنها كانت في القرن الثامن ...

وليس نينوس الذي زوجها إياه إلا تشخيصًا لمدينة نينوى، أي أنهم توهموا من نينوى شخصًا سموه نينوس، ومسحة سميراميس الميثولوجية أظهر في أقوال المؤرخين من مسحة نينوس، فقد جعلوا أمها «ديركيتو» الإلهة السمكة، وجعلوا الحمايم تغذيها، ولكننا إذا نظرنا إلى ما قاله هيرودوت وستيزياس عنها نرى أنها في قول الأول أقرب إلى التاريخ وفي قول الثاني أقرب إلى الأسطورة.

ويرجح المؤرخون المتأخرون أن أسطورتها حيكمت على أصل تاريخي، فقد كشف السر رولنسون، الباحثة الإنكليزية في الآثار الآشورية، تماثيلين كتب عليهما بالقلم المسماري ما ترجمته:

إن هذين التماثيلين تقدمتا من حاكم آشوري للمعبود ينبو ليرعى الملك إيفالوش وزوجته سموراميت، ويطلق أيام ملكه، ويلقي السلام في بيته وبلاده وينصر جيوشه.

والملك إيفالوش هو ابن الملك جاماسب، وخلفه على عرش آشور ملك من سنة ٨٠٠ إلى سنة ٧٨١ ق.م. ولما كان ذكر الملكة مع الملك في كتابتي على تماثيلين يراهما الناس مما

ينافي العادات الشرقية المرعية في تلك العصور، فقد استنتج من التنويه باسم سموراميت أن هذه الملكة كانت ذات شأن خطير وأن زوجها الملك لا بد من أن يكون قد أشركها في إدارة شئون المملكة.

وورود اسمها دون أية امرأة غيرها في تاريخ الآشوريين حمل مؤرخي اليونان ومخرفيهم على إطرء جمالها والإشادة بصفاتهما ومآتيهما، وعلى تحريف اسمها فسموها سميراميس، ولا يعارض هذا قول هيروdot إنهما أميرة بابلية، فقد تكون سموراميت أميرة بابلية الأصل تزوجها الملك إيفالوش ليؤيد سلطته بواسطتها على الولايات الجنوبية، فأشركها في ملكه فشيئت في بابل تلك المباني العظيمة.

غير أن المنقبين عن الآثار الآشورية يرون أن سميراميس إلهة أسطورية شرقية، هي عند البابليين كفينوس عند الرومان، ويقال: إن اسمها الآشوري «شاميرام» ومعناه «حمامة» سميت به لتوهمهم أن الحمام احتضنتها وغذتها، وقيل: بل اسمها هو اسم إلهة آشورية قديمة كانوا يعتبرونها وسيطاً أسمى بين مبدأي الخير والشر، ويرونها رمز الحب والسعادة وفرح الرجال والظفر في الحرب، ويرى آخرون أن اسمها مأخوذ من اللفظة السنسكريتية «سميراما» ومعناها «المحب»، وأسطورتها رمز إلى عهد القوة الآشورية وتوسعها العظيم، وإلى مدنية السلالة الملكية الآشورية.

المعجم

دجلة والفرات: طول دجلة ١٨٥٠ كيلومتراً وطول الفرات ٢٣٥٠، وينبع دجلة في جبل نيفاتيس قرب مناجم سيوان في جبال أرمنية غير بعيد عن المكان الذي ينبع فيه الفرات، ويلتقي النهران قرب قرية القرنة، فيؤلفان شط العرب الذي يزيد طوله على ١٦٠ كيلومتراً خطأ مستقيماً، واسم دجلة في الآشورية أيديجلات واسم الفرات بوراتو.

بابل: لفظة بابلية معناها «باب الإله»، ولها معنى آخر هو التبلبل، ولعل للاسم علاقة بأسطورة تبلبل الألسنة.

بيلوس: هو أنليل الشمريين وبعل الفينيقيين أصله شمري ثم صار إلهاً سامياً، ومعنى اسمه السيد، وهو إله العالم البشري ومقرّر مصيره.

(٧) بيرام وتسبا

المقدمة

هذه أسطورة شرقية بابلية نشأت حوادثها في منزلين متلاصقين في جوار السور العظيم الذي سُوِّرت به سميراميس مدينة بابل، وانتهت في ظاهر المدينة تحت شجرة من التوت الأبيض قرب عين ماء تجاور قبر نينوس الملك، انتهت بمصرع عاشقين انتحر كل منهما أسى على صاحبه، وسقى دمهما عروق شجرة التوت الأبيض، فتحولت إلى توتة حمراء أو ما نسميه بالتوت الشامي، ولبست أثمارها البيضاء ثوب السواد حدادًا على العاشقين، ولا تزال تحدُّ عليهما إلى ما شاء إلهة الحب والأساطير.

وأول من ذكر هذه الأسطورة أوفيد الشاعر اللاتيني في كتابه «التحول»، ولا بد من أن يكون قد استقاها من ينبوع بابلي، بيد أن ما بقي من الكتابات البابلية لا يشير إليها. وقد وضع الروائي الفرنسي تيوفيل ده دفيو في هذه الأسطورة مأساة دعاها بيرام وتسبا، ونقلت إلى العربية ومثَّلت مرارًا، وعلى بحثي في المكاتب لعلي أقع على نسخة منها، وسؤالي غير واحد من قدماء الأدباء لأعرف من هو معربها، لم أصل إلى ما أردته. وللشيخ عبد الله البستاني قصيدة سماها الفرصاد أي التوت الشامي سرد فيها حوادث هذه المأساة الفاجعة.

(٨) سليمان وبلقيس

المقدمة

ولد سليمان لداود ملك إسرائيل من بتشابع امرأة أورياً التي أخذها داود امرأة له بعد أن فتك بزوجها، واسم سليمان عبري ومعناه «ذو سلام» وأصله في العبرية «شليم» والألف والنون للنسبة، وكانت مملكة والده تمتد من نهر الفرات إلى تخوم مصر ومن البحر المتوسط إلى خليج العقبة، وقد ازدهرت هذه المملكة وزادت اتساعاً في أيام سليمان، وامتدت تجارتها حتى بلغت أوفير في نواحي الهند، وعقد سليمان معاهدة تجارية مع حيرام ملك صور، واستمد مساعدته لبناء هيكل أورشليم، فأمده من لبنان بالصناعات وبخشب الأرز والسرو والصندل.

وبنى سليمان مدناً كثيرة للخرن، وبنى تدمر في البادية، بين الشام والفرات، محطة لقوافله، وحماية لها من غارات العرب الرحّل، ولكي يأخذ مكوساً على أصناف التجارة التي كانت تجتاز مملكته.

أما بلقيس فيقول مؤرخو العرب: إنها بلقمة بنت شرحبيل بن مالك بن الريان، ويتصل نسبها بيعرب بن قحطان. وضربوا بها المثل في المجد والعزة والجمال.

وأسطورة سليمان وبلقيس التي نحن في صدها عربية صميم، وهي وإن اتفقت في أصولها وما جاء في الكتب المنزلة وأقوال المؤرخين، تتباين وإياها في أمور كثيرة، ولا عجب فللخيال في الأساطير المقام الأول، ولولاه لما كان فيها متعة ولذة.

والكتب المنزلة نفسها تتباين في صفات سليمان، ولكنها تتفق على أن الله آتاه الحكمة والمجد والغنى، فتقول التوراة: إن سليمان طلب من الله أن يهبه قلباً فهمًا ليحكم بين شعبه ويميز بين الخير والشر، وتجلّى له الرب في الحلم، وقال له: «ها أنا ذا قد أعطيتك قلباً حكيماً فهماً، حتى إنه لم يكن قبلك مثلك ولا يقوم بعدك نظيرك، وأيضاً ما لم تسله قد أعطيتك إياه الغنى والمجد حتى لا يكون رجل مثلك في ملوك كل أيامك.»

ويقول الإنجيل: «ملكة التيمن (اليمن) أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان.» وفي سورة سبأ في القرآن: (وسخرنا) ﴿لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَاحُهاً شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرْغَبُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

وفي سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ * وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الجِنَّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

واسم ملكة سبأ في الأسطورة وأقوال المؤرخين هو بلقيس، أما الكتب المنزلة فلا تعطيهما اسماً، ففي الفصل العاشر من سفر الملوك الثالث في التوراة: «وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان واسم الرب، فقدمت لتختبره بأحاجي» والإنجيل يدعوها ملكة التيمن، والقرآن يذكر أنها ملكة سبأ: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وكلها تتفق على الإشارة إلى مجد ملكة سبأ وعزتها.

القسم الثاني

والأسطورة والمؤرخون يزوجون سليمان بلقيس، أما الكتب المنزلة فلا تذكر شيئاً من ذلك، فالتوراة تكتفي بقولها: «وأعطى سليمان ملكة سبأ كل بغيتها التي سألتها فوق ما أعطها من العطايا على حسب كرم الملك سليمان، وانصرفت وذهبت إلى أرضها وعبيدها»، وليس في الحواشي المعلقة على سفر الملوك الثالث ما يفسر المراد من إعطائه إياها كل بغيتها، وربما أريد بذلك أنه أعطها ما ابتغته من تفسير الأحاجي التي حملتها معها، وبعيداً أن تكون قد ابتغت منه أن يتزوجها، والفصل الحادي عشر من سفر الملوك الثالث يعدُّ زوجات سليمان سبعمائة زوجة وثلاثمائة سريّة، ولا يذكر بلقيس ولا ذكرتها الفصول الأخرى، فلو كان سليمان قد تزوجها لذكرت التوراة ذلك كما ذكرت زواجه ببنت فرعون، ولم تكن بنت فرعون بأعزّ من بلقيس. والأسطورة تسخر الجنّ لسليمان فيبنون له تدمر، قال النابغة الذبياني في دليّته «يا دار مية»:

إلا سليمانَ إذ قالَ الإلهُ لَهُ قم في البرية فاحدها عن الفندِ
وخيس الجن أني قد أدنت لهم يبنون تدمر بالصّفاح والعمدِ

أما التوراة فتقول: «وبنى سليمان ... وتدمر في البرية.» ولا تذكر أن الجن بنوها له، وليس في القرآن ما يشير إلى ذلك. وسليمان في التوراة إسرائيلي وهو في القرآن والأسطورة مسلم دعا ملكة سبأ إلى الإسلام، فأجابت دعوته، وهو يموت في الأسطورة مخلصاً قلبه للرب، ولكنه في التوراة: «أزاعت نساؤه قلبه وملن قلبه في شيخوخته إلى اتباع آلهة غريبة، فلم يكن قلبه مخلصاً للرب إلهه وتبع عشتاروت إلهة الصيدونيين»، وجائز أن يكون قد تاب قبل موته ورجع إلى ربه. ومهما يكن من أمر فالكتب المنزلة والأسطورة تتفق على أن سليمان كان رجلاً حكيماً وملكاً عظيماً في ملوك أيامه.

المعجم

فرعون: الذي تزوج سليمان بنته هو في رأي المستشرق ماسبرو ملك الدلتا «سبيناكين».
سليمان: تولى الملك على إسرائيل سنة ١٠١٦ ق.م.
أورشليم: معناها مدينة السلام.

القَيْل: كان هذا اللقب في اليمن لقب الملك دون الملك الأعظم.

بلقيس: اختلف المؤرخون في زمن موتها، فقال بعضهم: إنها ماتت قبل سليمان. وقال آخرون: إنها ماتت بعده بسبع سنوات وسبعة أشهر، ولا نعلم لماذا خص المؤرخون والأسطورة بلقيس بعدد «سبعة»؟ فأبياتها سبعة وأبوابها سبعة وقصورها سبعة وعاشت بعد سليمان سبع سنوات وسبعة أشهر. ويقولون: إنها دفنت تحت حائط في مدينة تدمر، ولم يعلم أحد بموضع قبرها إلى أيام الوليد بن عبد الملك. حُبر أبو موسى بن نصر قال: بُعثت في خلافته (الوليد بن عبد الملك) إلى مدينة تدمر ومعى العباس ابنه، فجاء مطر عظيم، فانهار بعض حائط المدينة، فانكشفت الأرض عن تابوت طوله ستون ذراعاً متخذ من حجر أصفر كأنه الزعفران مكتوب عليه: هذا مدفن تابوت بلقيس الصالحة زوجة سليمان بن داود دُفنت ليلاً تحت حائط بمدينة تدمر، ولم يطلع على دفنها إنس ولا جان إلا من دفنها. فرفعنا عنها غطاء التابوت وإذا هي غضة كأنها دُفنت في ليلتها، فكتبنا بذلك إلى الوليد، فأمر بتركه في مكانه وأن يُبنى عليه بالصخر والمرمر. ويستدل من كلام أبي موسى أن الكتابة كانت بالعربية (?).

المصادر

(١) العربية

مروج الذهب للمسعودي.
تاريخ الخميس للقاضي الديار بكري.
دائرة المعارف العربية للبستاني.

(٢) الغربية

الإلياذة لهوميروس: تعريب سليمان البستاني.

Virgile: L'Enéide.

Ovide: Les métamorphoses.

Ovide: Les amours.

Euripide: Tragédies.

J. Frazer: Adonis.

Louis Menard: Histoire des Anciens Peuples d'Orient.

Pierre Lavedan: Dictionnaire de la Mythologie et des Antiquités Grecques et Romaines.

Larousse du 20ème siècle.

وما ورد في تضاعيف الكتب العربية والفرنسية من أقوال مؤرخي الشعوب القديمة أمثال: بيروت الكلداني، وسنكنيتن البيروتي، وفيلون الجبيلي، وستيزياس وديودور اليونانيّين، وجوستين اللاتيني، والمستشرق رولنسون الإنكليزي.